وزارة التعليـــــم العـــالي والبحث العلمـي
جـامعة الشهيد حمّه لخضر ـ الوادي ـ
كلية العلوم الإسلامية
قسم أصول الدين

مذكرة في مقياس

الحديث الموضوعي

موجهة لطلبة السنة الثالثة كتاب وسنة

الموسم الجامعي:2023/2022

تأليف: د. العيد بلالي

المقدمة

إن عناية المُحدِّثين وعلماء الحديث بالسنة النبوية عموما، وعلوم الحديث الشريف خصوصا، تنوَّعت وازدادت كمًّا ونوعًا منذ عصر التدوين إلى عصرنا الحاضر،ففي حين كانت خمسين نوعًا عند الإمام أبي عبدالله الحاكم النيسابوري في كتابه "معرفة علوم الحديث"[1]بلغت خمسةً وستين نوعًا عند الإمام ابن الصلاح في "مقدِّمته"[2]؛ ثم زادها الإمام السيوطي إلى ثلاثة وتسعين نوعًا في "تدريب الراوي"[3]

بل إن ابن الصلاح قال في مقدِّمة "مقدمته"، بعدما عدَّدَ ما وصل إليه اجتهادُه من أنواع علوم الحديث الخمسة والستين:

"وليس بآخِرِ المُمكِن في ذلك؛ فإنه قابلٌ للتنويع إلى ما لا يُحصى؛ إذ لا تنحصِر أحوالُ الرواة وصفاتُهم، وأحوالُ متون الحديث وصفاتُها"[4].

وفي عصرنا الحاضر ظهرت إلى الوجود مصطلحاتٌ تدلُّ على أنواعٍ متجدِّدة من العلوم المتعلِّقة بالحديث الشريف، ومما ظهر واستُعمل مصطلَح "الحديث الموضوعي". وهو مصطلح معاصر، شاع في أوساط دارسي الحديث وعلومه،

[1] معرفة علوم الحديث"؛ للحاكم النيسابوري 405هـ، اعتنَى بنشره وتصحيحه والتعليق عليه مع ترجَمة المصنِّف: الأستاذ الدكتور السيد معظم حسين رئيس الشعبة العربية والإسلامية بجامعة دكَّة بنغالة، وطُبع تحت إدارة جمعية دائرة المعارف العثمانية الكائنة بحيدر آباد الدكن، ط3، يُطلب من المكتبة العلمية بالمدينة

[2] "علوم الحديث، مقدِّمة ابن الصلاح"؛ للحافظ أبي عمرٍو بن الصلاح 643هـ، اعتنَى به وعلَّق عليه: إسماعيل زرمان، مؤسسة الرسالة ناشرون - بيروت، ط1: 1425 هـ/2004م.

[3] "تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي"؛ للإمام السيوطي 911 هـ، اعتنَى به: حسن شلبي وماهر ثملاوي، مؤسسة الرسالة ناشرون - بيروت، ط1: 1427 هـ/2006م.

[4] علوم الحديث" مقدِّمة ابن الصلاح ص 13.

ويتناوله الطلبة بالدراسة كمقرر أساسي في الجامعات والكليات والمعاهد الإسلامية. لذا صار من الضروري للباحثين في علوم الحديث الشريف دراسة الحديث الموضوعي والاعتناء به وفهم منهجه بكلّ دقة، لما يتسم به من منهج فريد ومسلك علمي في اختيار الألفاظ، وثراء المعاني وروعة الطرق في جمع الأحاديث وتتبعها وتنزيلها على الواقع واستخلاص الهدف منها ، مع مراعاة مقاصد الحديث وأصول السنة النبوية وقواعدها العامة.

ولتحقيق تلك الغاية من دراسة الحديث الموضوعي أقدم هذه المطبوعة البيداغوجية الموجهة لطلبة السنة الثالثة -كتاب وسنة – السداسي السادس، والتي تتوافق مع البرنامج الوزاري المقرر وفق المحاور التالية:

1. مدخل إلى الحديث الموضوعي

2. القضاء والقدر من خلال السنة النبوية

3. حقيقة الكفر من خلال السنة النبوية

4. فضل الدعوة ومكانتها من خلال الأحاديث النبوية

5.حرمة المسلمين في ضوء السنة النبوية

6.سمو الأخلاق الإسلامية في ضوء السنة النبوية

المحاضرة الأولى: مدخل إلى التعريف بالحديث الموضوعي

01- تعريف الحديث الموضوعي لغةً واصطلاحًا:

أ. **تعريفه في اللغة:** الحديث الموضوعي اصطلاح مُستحدَث، وهو مركَّبٌ وصفيٌّ يحتاج لبيان جُزئيه قبل محاولة تعريفه[1].أما **"الحديث"**، فهو في اللغة: "نقيضُ القديم"[2] . - ومن ذلك حديث عَبْدِ اللَّهِ بن مسعود رضى الله عنه قَالَ: كُنَّا نُسَلِّمُ فِي الصَّلاَةِ، وَنَأْمُرُ بِحَاجَتِنَا، فَقَدِمْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- وَهُوَ يُصَلِّي، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيَّ السَّلاَمَ، فَأَخَذَنِي مَا قَدُمَ وَمَا حَدُثَ[3]، فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- الصَّلاَةَ قَالَ : «إِنَّ اللَّهَ يُحْدِثُ مِنْ أَمْرِهِ مَا يَشَاءُ وَإِنَّ اللَّهَ جَلَّ وَعَزَّ قَدْ أَحْدَثَ مِنْ أَمْرِهِ أَنْ لاَ تَكَلَّمُوا فِي الصَّلاَةِ». فَرَدَّ عَلَيَّ السَّلاَمَ)[4].

والحدوث: كون شيء لم يكن، وأحدثه اللّه، فهو مُحْدَثٌ وحديث، وكذلك استحدثه. يقال: استحدثت خبراً ، أى وجدت خبراً جديدا .ومنه قيل لكلام النبي صلي الله عليه وسلم "حديث " باعتباره جديداً في مقابلة كلام اللّه القديم وهو القرآن الكريم، والمعنى الثاني: الخبر، أو القصة ، أو مطلق الكلام ، ويأتي على

[1] "الحديث الموضوعي دراسة نظرية"؛ رمضان إسحاق الزّيّان، مجلة الجامعة الإسلامية، المجلد العاشر، العدد الثاني، ص 209.

[2] يُنظر: "لسان العرب"؛ لابن منظور، مادة: حدّث 796/2، "لسان العرب"؛ لابن منظور 711هـ، تولّى تحقيق "لسان العرب" نُخبة من العاملين بدار المعارف، هم الأساتذة: عبدالله علي الكبير ومحمد أحمد حسب الله وهاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، مصر، د.تخ.

[3] قال ابن الأثير فى النهاية 351/1 : "يعنى همومه وأفكاره القديمة والحديثة"

[4] أخرجه أبو داود فى كتاب : الصلاة، باب : رد السلام فى الصلاة 243/1(924)، والطيالسى ص33(245)

القليل والكثير[1].ومن ذلك قوله تعالى:(وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى) (طه: 9) وقوله (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ) (الذاريات: 24) ، وقوله عز وجل (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ) (البروج: 17)، يعنى أخبارهم وقصصهم ومِن ذلك وصف القران بأنه حديث ، أي كلام ، في آيات كثيرة، منها قوله تعالى:(اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ) (الزمر23) . ومن ذلك حديث جابر بن عبد الله رضى الله عنهما، عن النبي صلي الله عليه وسلم قال:(إِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللّه)[2] .

والحديث: هو اسم من التحديث، وهو الإخبار، ثم سُمِّي به قولٌ، أو فعل، أو تقرير نُسِب إلى النبي - عليه الصلاة والسلام - ويُجمَع على "أحاديث" على خلاف القياس"[3] وقيل : يجمع على "حُدْثان " بكسر الحاء وضمها، والضم قليل ، وقيل : يجمع على "أَحْدثة"، على وزن أفْعلَة، ككتيب وأكْتِبة.[4]

وقال الحافظ ابن حجر: المراد بالحديث - في عُرْف الشرع -: ما يُضافُ إلى النبيِّ - صلى الله عليه وسلم - وكأنه أُريدَ به مقابَلة القرآن؛ لأنه قديم[5].

---

[1] انظر : القاموس المحيط 1 /164 ، وتاج العروس 1/ 611 ، وكشات اصطلاحات الفنون 2/ 13.

[2] أخرجه النسائى فى كتاب : صلاة العيدين ، باب : كيف الخطبة 188/3 وعند مسلم فى كتاب : الجمعة، باب : تخفيف الصلاة والخطبة 592/2 (43/867) بلفظ : "فإن خير الحديث كتاب الله "

[3] "معجم الكليات" لأبي البقاء أيوب بن موسى الكفوي 1094هـ،، ص 370. قابَلَه على نسخة خطيَّة، وأعدَّه للطبع ووضَع فهارسه: د. عدنان درويش ومحمد المصري.مؤسسة الرسالة - بيروت، ط2: 1419هـ/ 1998م.

[4] انظر : القاموس المحيط 164/1، وتاج العروس 612/1، ومختار الصحاح ص 125

[5] " فتح الباري بشرح صحيح البخاري"؛ للحافظ ابن حجر العسقلاني 852 هـ، طبعة مُصحَّحة على عدة نُسخ، وعن النسخة التي حقَّق أصولها وأجازَها: الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز. 261/1.
دار الفكر - بيروت: 1414هـ/1993م.

ولكن الحافظ قال في "شرْح النُّخبة": الخبَر عند علماء الفن مرادِف للحديث، وقيل: الحديث: ما جاء عن النبي - صلى الله عليه وسلم - والخبر: ما جاء عن غيره، ومن ثَمّة قيل لمن يشتغِل بالتواريخ وما شاكَلها: الإخباري، ولمن يشتغِل بالسنة النبوية: المُحدِّث[1].

وفي اصطلاح المحدثين: ما أضيف إلى النبي صلي الله عليه وسلم من قول ، أو فعلٍ ، أو تقرير، أو صفةٍ خِلْقيةٍ وخُلُقية . ويضيف بعض العلماء إلى ذلك: أقوال الصحابة وأفعالهم ، ويزيد آخرون : أقوال التابعين وأفعالهم[2].

وقد اختُص الحديث بأقواله صلي الله عليه وسلم في وقت مبكِّر، وذلك في حياته . وعلى لسانه صلي الله عليه وسلم

- يشهد لذلك: حديث أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ قَالَ: قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (لَقَدْ ظَنَنْتُ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَنْ لَا يَسْأَلَنِي عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ أَحَدٌ أَوَّلُ مِنْكَ؛ لِمَا رَأَيْتُ مِنْ حِرْصِكَ عَلَى الْحَدِيثِ، أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ أَوْ نَفْسِهِ)[3].

وباعتبار الحديث علما فإنه ينقسم قسمين : علم الرواية ، وعلم الدراية .

---

[1] "نزهة النظر في توضيح نُخْبة الفِكَر في مصطلَح أهل الأثر"؛ للحافظ ابن حجر العسقلاني 852 هـ، تحقيق وتعليق: د.عبدالله بن ضيف الله الرحيلي، ط1: 1422هـ/2001م. ص35

[2] انظر فى التعريف : نزهة النظر ص 18 ، وكشاف اصطلاحات الفنون 13/2 .

[3] أخرجه البخارى فى كتاب : العلم ، باب : الحرص على الحديث 193/1 (99)، وفى كتاب : الرقاق ، باب : صفة الجنة والنار11 /418(6570)

أما علم الحديث رواية: فهو.علم يشتمل على أقوال النبي صلي الله عليه وسلم وأفعاله ، وتقريراته وصفاته ، وروايتها ، وتحرير ألفاظها .

وأما علم الحديث دراية : فهو علم يُعرف منه حقيقة الرواية ، وشروطها ، وأنواعُها ، وأحكامُها ، وحالُ الرواة ، وشروطُهم ، وأصناف المرويات ومايتعلق بها. أو هو القواعد المعرِّفة بحال الراوى والمروى، أو بحال السند والمتن[1].

وأما **"الموضوعي"**، فهو نِسبة إلى "الموضوع"، مأخوذ من "الوضْع"، وهو ضد الرفع، وهو لفظ يدلُّ على الخفض للشيء والحطِّ له[2].

وفي "المعجم الوسيط": الموضوع: المادة التي يَبني عليها المُتكلِّمُ أو الكاتب كلامَه[3].

و"الموضوع: هو عبارة عن المبحوث بالعِلم عن أعراضه الذاتية"[4].

مما سبَق تتبيَّن معاني الحديث الموضوعي من جِهة الاصطلاح؛ حيث إنه "اصطلاحٌ جديدٌ شاع على ألسنة العلماء حديثًا، وأُطلِق اسمًا على مادة تُدَرَّس في كليات أصول الدين بأقسامها المختلفة، وصار عنوانًا للونٍ من ألوان دراسة الحديث الشريف"[5].

---

[1] المرجع السابق، نفس الصفحة

[2] أ.د. عبدالرحمن البر: معنى الحديث الموضوعي وفوائد دراستِه؛ موقع البصيرة: الموقِع الشخصي للأستاذ عبدالرحمن البَر..

[3] "المعجم الوسيط» جمهورية مصر العربية: مجمع اللغة العربية: الإدارة العامة للمعجمات وإحياء التراث.
ط4: 1425هـ/2004م. مكتبة الشروق الدولية. مادة وضع، ص (1040).

[4] "معجم الكليات" لأبي البقاء الكفوي ص 868.

[5] أ.د. عبدالرحمن البَر: معنى الحديث الموضوعي وفوائد دراسته، مرجِع سابق.

ب- تعريف الحديث الموضوعي في الاصطلاح: وضع عددٌ من العلماء المعاصرين المشتغِلين بعلم الحديث تعريفاتٍ مختلفةً له.

فهو: "جمْع الأحاديث المتعلِّقة بموضوع واحد مع محاولة تصنيفها تصنيفًا جزئيًا، مع التركيز على التأليف بين المتعارِضات إن وجدت، تارة بالجمع، وتارة بالنَّسخ، وتارة بالترجيح، وتارة بالتوقف"[1].

أو "الأحاديث التي تعدَّدت أساليبُها وأماكنُها، ولها جِهة واحدة يمكن أن تَجتمِع فيها، سواء عن طريق المعنى الواحد، أو الغاية الواحدة"[2].

أو هو "علمٌ يبحث في القضايا التي تناوَلتها النصوص والأحاديث المتَّحدة في المعنى، أو في الغاية، أو فيهما معًا، وذلك بجمْعها من مصادرها المتعدِّدة، ووضْعها في مكان واحد، والنظر فيها على هيئة مخصوصةٍ، بشروط مخصوصةٍ؛ لبيان معانيها، واستخراج عنَاصرها، والرَّبط بينها برباطٍ جامع"[3].

أو "هو علمٌ يبحث في الموضوعات التي تناوَلتها السُّنة النبوية الشريفة، والمتحدة معنىً، أو غاية، من خلال جمْع أحاديث الموضوع من مصدر حديثي أصلي، أو عدة مصادر، أو في ضوء السُّنة النبوية، بحيث يقوم الباحث بتحليل النصوص

[1] محاضَرات في الحديث الموضوعي للشيخ أ.د. السيد نوح.

[2] يُنظر: تعريف التفسير الموضوعي للدكتور عبدالستار سعيد في كتابه "المدخل إلى التفسير الموضوعي" ، نقلاً عن: أ.د. عبدالرحمن البَر: معنى الحديث الموضوعي وفوائد دراسته، ص 19-20

[3] أ.د. عبدالرحمن البَر: معنى الحديث الموضوعي وفوائد دراسته، مرجع سابق.

الحديثية المقبولة ومقارنتها ونقْدها ثم محاولة ربْطها للوصول إلى روح النصِّ النبوي من أجل تطبيقه في الواقع المعاصر"[1].

وعلى ذلك يمكن تعريف الحديث الموضوعي بأنه[2] : علم يبحث في القضايا التي تناولتها النصوص والأحاديث المتحدة في المعنى، أو في الغاية، أو فيهما معا،وذلك بجمعها من مصادرها المتعددة، ووضعها في مكان واحد، والنظر فيها على هيئة مخصوصةٍ ، بشروط مخصوصةٍ ، لبيان معانيها ، واستخراج عناًصرها ، والربط بينها برباطً جامع .

فمثلاً قضية الجهاد : نقوم بجمع الأحاديث الواردة في الجهاد، ونخرِّجها من مصادر السنة المختلفة، وناخذ منها ما يصلح للحجة في بابه .

ثم ننظر فيها، لنستخرج العناصر، ونرتبها ترتيبا علميّا منطقيا متسلسلاً، بحيث يكون الانتقال من عنصر إلى عنصر أمرا طبيعيًا ومنطقيا، حسب قواعد التأليف والبحث العلمى، فنبدأ ببيان المقصود بالجهاد، وغاية الجهاد في الإسلام ، ثم صور الجهاد وأنواعه ، ثم أحكام الجهاد وفضائله ومراتبه ، ثم آثاره المادية والمعنوية على الفرد والأمة، ثم وسائل بث الروح الجهادية في الأمة إلى آخر ما يمكن استخراجه من عناصر من خلال نصوص الأحاديث التي جُمعِت .

أما الرابطة الجامعة بين الأحاديث فهي إما أن تكون في الغاية فقط ، واما أن تكون في المعنى والغاية معا، وعلى هذا يمكن تقسيم الحديث الموضوعي إلى نوعين :

[1] الحديث الموضوعي دراسة نظرية"؛ رمضان إسحاق الزّيّان، مجلة الجامعة الإسلامية، المجلد العاشر، العدد الثاني، ص 214

[2] انظر تعريف التفسير الموضوعى للدكتور عبد الستار سعيد فى كتابه االمدخل إلى التفسير الموضوعى" ص 19-20

الأول : الحديث الموضوعي العام : وهو الذى بين أطراف موضوعه وحدة في الغاية فقط ، لا في أصل المعنى .

بمعنى أن هذا الموضوع يكون له أصل في الأحاديث ، ولكن تحته قضايا كثيرة متعددة، لا يربط بينها إلا وحدة الغاية، وهي وحدة محققة حتى وان كانت بعيدة .

من ذلك مثلاً قضية الأدب ، فهي تشمل الأحاديث التي تتناول الأدب النبوي ، في قضايا متعددة، يجمع بينها أنها من جملة الأدب . انظر مثلاً في كتاب "الأدب المفرد" للإمام البخارى تجد فيه ما يقرب من ستمائة وخمسين بابا من أبواب الأدب في مختلف الأمور، ففيه أبواب متعددة في أدب بر الوالدين ، وأدب صلة الأرحام ، وأدب رعاية الأولاد ، وأدب حسن الجوار ، وأدب كفالة الأيتام ، وأدب العفو ، وأدب معاملة العبيد والخدم ، وأدب الصدقة والمعروف ، وأدب اللعب والمزاح ، وأدب حسن العشرة ، وحسن الخُلُق ، وأدب زيارة الإخوان ، وأدب رحمة الصغار، وأدب الصبر ، وأدب الصداقة ، وأدب الكلام ، وأدب عيادة المرضى ، وأدب التواضع ، وأدب الحياء ، وأدب الاستغفار والدعاء والاستعاذة ، وأدب الضيافة ، وأدب التسمِّي ، وأدب كتمان السر، وأدب الأخوة ، وما يحق للمسلم على المسلم ، وأدب الاستئذان ، وأدب المجالسة ، وأدب الذكر، وأدب الختان ، إلى غير ذلك من الآداب الكريمة .

ومن ذلك كتب "الترغيب والترهيب من الحديث الشريف " ، و "رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين " و"الزهد" وغير ذلك من الكتب التي تحوى أحاديث في موضوعات مختلفة ، تربطها غاية واحدة .

الثاثى : الحديث الموضوعي الخاص : وهو الذى يقوم على وحدة المعنى والغاية بين أطرافه وأفراده ، فتكون الرابطة بينهما خاصة وقريبة .

من ذلك كل موضوع خاص من الموضوعات التي تناولها كتاب "الأدب المفرد" على النحو السابق ، وكذلك موضوع "آداب النية والإخلاص " وموضوع "آداب المجالسة" ونحو ذلك .

ومن ذلك كتب الإمام الحافظ أبو بكر بن أبى الدنيا الكثيرة، ككتاب : "الصمت " و "الشكر" و "التوكل على اللّه " و "التواضع والخمول "، وغيرها من كتبه وكتب غيره من مشاهير العلماء.

ومن ذلك موضوع "اليهود في السنة النبوية المطهرة" وموضوع "منهج السنة في العلاقة بين الحاكم والمحكوم " ونحو ذلك[1] .

ويفهم من التعريفات السابقة مايلي:

1. أن هذا العلم يحتاج من الباحث الاجتهاد في فهم المراد من الحديث، لأن دلالة الحديث على الموضوع ظاهرة أو خفية.

2. ينصب جَهد الباحث في الدراسة الموضوعية على لفظ الحديث ومتنه دون سنده.

[1] المرجع السابق، نفس الصفحة

3. يتناول الباحث الجانب الموضوعي المستفاد من المتن، وذلك بتحليل متون الأحاديث والوقوف على معاني المتن ومضامينه وموضوعاته المتعلقة بأمور العقيدة أو العبادة أو التشريع أو الأخلاق.. وغيرها. لذلك قد يستفاد من العلوم الأخرى مثل: علم التوحيد أو التفسير أو التاريخ .... على سبيل الاستئناس والتوضيح.

4. يقوم الباحث بفهم واستنباط المقاصد والغايات من الأحاديث النبوية لهداية الأمة.

5. الدراسة الموضوعية تتناول الحديث النبوي سواء كان قولاً أو فعلاً أو تقريراً. وتعتمد على الأحاديث المقبولة- الأحاديث الصحيحة والحسنة بنوعيها- ولا تعتمد على غيرها إذ تقلل من قيمة وأهمية الدراسة.

6. الدراسة الموضوعية تتناول موضوعاً واحداً في السنة سواء كان في حديث واحد أو جملة أحاديث.

7. يستخرج الموضوعات الرئيسية والفرعية المستفادة من النصوص النبوية.

أهمية دراسة الحديث الموضوعي: تتمثل أهمية دراسة الحديث الموضوعي فيما يلي[1]:

[1] د. زكرياء صبحي زين الدين ، تجربتي مع الحديث الموضوعي ، ص: 05، رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية، غزة ، فلسطين ، 2010-بتصرف-

1- يبين الحديث الموضوعي مراد الإسلام في أي موضوع من الموضوعات المدروسة ومقصد النبوة وجوهر الرسالة، إذ أن القرآن نصوصه مجملة، بينما نصوص السنة تفصيلية وشاملة، ولذا فإن جمع الأحاديث في موضوع واحد مع دراستها رواية ودراية وتنزيلها على الواقع يعين على فهم السنة النبوية ويبرز الهدي النبوي للمسلم في الزمن الحاضر.

2- الحديث الموضوعي ترجمة تفصيلية للإسلام، قال الله تعالى:(ما فرطنا في الكتاب من شيء)(الأنعام:38)، فما تركت السنة النبوية شيئا إلا وبينته بيانا كاملا في كل جوانب الحياة الإنسانية.

3- الحديث الموضوعي يؤكد خاصية هامة من خصائص الإسلام بأنه دين صالح لكل زمان ومكان، لأن السنة النبوية معين لا ينضب من الموضوعات التي تخاطب كل عصر وكل جيل، لذا فجمع أحاديث في موضوع معين من الموضوعات المعاصرة والتعليق عليها يلبي حاجات العصر ويقدم الحلول الجديدة فهو ترجمة عملية لتلك الخاصية.

4- يساهم الحديث الموضوعي في التأصيل الشرعي للقضايا والموضوعات والعلوم المستجدة، فحينما تقدم السنة النبوية من خلال موضوعات معاصرة في علوم البيئة والطب والصحة وعلم النفس والتربية والإدارة والإعلام نصوصا مع التعليق عليها، فهي توضح أن الإسلام أصل لهذه العلوم.

5- الحديث الموضوعي يعمل على تشكيل العقل المسلم عقلا سليما متوازنا، إذ أن السنة النبوية من خصائصها أنها متوازنة تجمع بين متطلبات الجسد والروح،

وبين العمل للآخرة وعمارة الدنيا، فهي تربي المسلم على الاعتدال والتوازن في الفهم فلا إفراط ولا تفريط، بينما من تناول بعض الأحاديث في موضوع معين دون الإحاطة بباقي النصوص فلربما فهم فهما خاطئا فكان مفرطا أو متساهلا أو متشددا ظانا إن الإسلام هو كذلك، لكن لو أنه نحا منحى الحديث الموضوعي في جمع النصوص فسيكون متوازن الفهم سديد الحكم.

6- الحديث الموضوعي يحقق للباحث والقارئ جملة من الفوائد والمعرفة في علوم الحديث المختلفة التي تخدم متن وإسناد الحديث: مثل تخريج الحديث ودراسة إسناده ومعرفة سبب ورود وإيراد الحديث، ومختلف الحديث ومشكله، وغريب الحديث وشروحه، بل والعوم الشرعية الأخرى كالتفسير والفقه والعقائد، وكذلك العلوم المعاصرة مما يتعلق بموضوع البحث. وهذه العلوم متضمنة في شرح الحديث التحليلي بشكل تفصيلي إلا أنه في الحديث الموضوعي يتعرض الباحث لهذه العلوم بما يلي ويتناسق مع خطة البحث .

02-الفرق بين الحديث التحليلي والحديث الموضوعي[1] :الحديث التحليلي يتناول بالتحليل والشرح جميع قضايا الإسناد والمتن بشكل تفصيلي، وهذا يعتبر مقدمة للحديث الموضوعي إذ أن الباحث لا يمكنه الاستفادة من النص النبوي دون فهمه والوقوف على فوائده، إلا أن الحديث الموضوعي يتعرض لبعض هذه العلوم بما يخدم خطة بحث الموضوع ويختار للتعليق والتقديم والتعقيب ما يتناسب مع طبيعة الموضوع .

[1] المرجع السابق، ص 11

03- الفرق بين الحديث الموضوعي والتصنيف الموضوعي[1] :في دراسة الحديث الموضوعي نحتاج إلى التفريق بين تصنيف الأحاديث بمعنى تقسيمها حسب الموضوعات، وهي الطريقة التي سلكها العلماء السابقون، وبين ما يقصد به في الدراسات المعاصرة من جمع أحاديث في موضوع معين مع التحليل والنقد وتنزيل ذلك بقدر الإمكان على الواقع المعاصر . ومن خلال ماسبق يمكن التفريق بينهما من خلال ما يأتي:

- التصنيف الموضوعي طريقة من طرق ترتيب الأحاديث في المصنفات الحديثية فلقد كان للمحدثين الذين صنفوا مصنفات الحديث بأسانيدهم طريقتين طريقة المسانيد؛ وهي جمع مرويات كل صحابي على حدة كمسند أحمد بن حنبل، والبزار، وأبي يعلى وغيرهم. والطريقة الأخرى على الأبواب الفقهية والتي تقوم على أساس موضوع الحديث بجمع الأحاديث ذات الموضوع الواحد في دلالتها وهذه الطريقة مثل الجوامع والمصنفات والسنن والمستدركات والمستخرجات وغيرها .بينما الحديث الموضوعي هو جمع الأحاديث من المصنفات الحديثية سواء ما كان منها مصنفا على طريقة الأبواب أو على طريقة المسانيد والتي تدل على موضوع واحد والتقديم لها والتعليق عليها من كلام الشراح والعلماء والفوائد التي يستنبطها الباحث ويسكبها في موضوع كامل مادته الأساسية هي النصوص الحديثية.

- التصنيف الموضوعي قد يكون جمعا للأحاديث في موضوعات متعددة كالجوامع والسنن والمستخرجات والمصنفات، وقد تكون في موضوع واحد كالأجزاء الحديثية يترجم فيها المصنف للأحاديث بما يدل على بعض فوائدها وأحكامها؛ دون أي شرح

[1] المرجع السابق، ص 08

أو تحليل أو تعليق للأحاديث .بينما الحديث الموضوعي جمع للأحاديث في موضوع واحد فقط توزع فيها الأحاديث حسب خطة الموضوع وتكون الأحاديث بعد عنوان ثم تقديم له ويتبعه تعليق وربط بالحديث الذي يليه بما يتناسب و مورد الاستدلال.

- التصنيف الموضوعي قديم ودراسة مبكرة بدأت بتصنيف المصادر الأصلية للحديث التي أخرج أصحابها الأحاديث بأسانيدهم ، ولما انتهي عصور الرواية وتم جمع الأحاديث بأسانيد أصحابها استمر المصنفون من علماء الحديث بجمع الأحاديث من المصنفات الحديثية الأصلية على طريقة التصنيف الموضوعي كرياض الصالحين للنووي، والترغيب والترهيب للمنذري، ومثل مصنفات المجاميع كجامع الأصول في أحاديث الرسول لابن الأثير، أو مصنفات الزوائد كمجمع الزوائد ومنبع الفوائد .بينما الحديث الموضوعي علم معاصر يعتمد في جمع المادة الأساس وهي الأحاديث النبوية على التصنيف الموضوعي بشكل خاص لكونها الأيسر في جمع الأحاديث، وعلى بقية المصنفات على طريقة المسانيد بشكل عام، لكنه ليس مجرد جمع للأحاديث بل تقديم لها وتعليق عليها وربطها ببعضها بعضا لتشكل موضوعا متكاملا.

- التصنيف الموضوعي مجرد رواية للأحاديث بأسانيد أصحابها إن كانت مصادر أصلية، أو بدون أسانيد إن كانت ناقلة وعلى الأكثر يترجم المصنف للحديث أو لمجموعة أحاديث بترجمة كعنوان باب تدل على بعض فوائده . بينما الحديث الموضوعي هو دراسة شاملة لمجموعة من الأحاديث في موضوع واحد ويدخل فيه سائر علوم الحديث كتخريج الحديث بجمع المتابعات والمقارنة بين الألفاظ سيما

إذا كانت الألفاظ ذات دلالة وأثر بالموضوع، ودراسة الإسناد والحكم عليه، وبيان غريب كلماته، والتعرض لمختلف الحديث ومشكله إن وجد، وكذا سبب ورود وإيراد الحديث هذا إن كان له علاقة بالموضوع وغالبا ما يكون، وخدمة النص النبوي خدمة كاملة بتعريف الأماكن والبلدان الواردة في الحديث، وتوثيق الآيات، والتعريف بالمبهمين، والغوص في كتب شروح الحديث، ولربما سائر العلوم الأخرى كالتفسير والفقه والعقائد والزهد وغيرها، والعلوم المعاصرة من علوم التربية والأدب والإعجاز وعلوم البيئة والطب والصحة وغيرها مما له علاقة بموضوع البحث، ليختار الباحث من جواهر العلم ونفائسه ليجعلها في التقديم للحديث والتعليق عليه .

- التصنيف الموضوعي لا يشترط جمع كل أحاديث الموضوع إنما يجمع حديث أو اثنين أو بضعة أحاديث يدل عليها ترجمة وعنوان الباب .بينما الحديث الموضوعي جهد علمي هدفه بيان مقصد السنة في الموضوع الواحد إن لم يكن شرطه جمع كل الأحاديث الواردة في الموضوع، فشرطه جمع جل الأحاديث الدالة على خطة الموضوع والتي تتكفل ببيان مراد السنة في هذا الموضوع فمثلا في التصنيف بوب البخاري في صحيحية في كتاب الوضوء بباب فضل الوضوء وأورد فيه حديثا واحدا. بينما يستلزم للباحث في الحديث الموضوعي في موضوع عنوانه فضل الوضوء بجمع كل الأحاديث الدالة على فضل الوضوء من سائر المصنفات أو من مصنفات يشترطها لنفسه مبنية على خطة يضعها يلتزم بها يكون هدف هذا الموضوع بيان فضل الوضوء في السنة النبوية يغني عن الرجوع لأي مصدر آخر تقريبا .

- التصنيف الموضوعي خدم العصور التي برع فيها المصنفون في هذا الفن حيث الحاجة لجمع الروايات وتدوين السنة بطريقة يستفيد منه الفقهاء والمحدثون وتكون مرجعا لكل صاحب علم إذ أن السنة مصدر للتشريع بجانب القرآن الكريم وكلاهما وحي يمثل دين الإسلام .والحديث الموضوعي جهد علمي يلبي حاجة العصر الحديث حيث كثرة العوام وقلة العلماء والمتخصصون فيقدم الحديث الموضوعي موضوعات شتى في بشكل متكامل يقدم نظرة السنة لهذا الموضوع سواء كان من الموضوعات التي تحدث عنها العلماء قديما كالعبادات والمعاملات والجهاد والسير، أم كانت موضوعات مستجدة في علوم معاصرة يؤصل الحديث الموضوعي لها تأصيلا شرعيا يبين أن السنة معجزة وأنها صالحة لكل زمان ومكان وتلبي احتياجات كل عصر .فليس الحديث الموضوعي بدعة معاصرة وإنما هي تلبية لحاجة العصر على درب العلماء الأوائل بخدمة عصورهم وتلبية حاجات أهل زمانهم للعلوم والمعارف، وهذا وذاك يؤكد على مصدرية السنة أنها من عند الله معين لا ينضب من الفوائد والعلوم .

03- أنواع الحديث الموضوعي ومناهج دراسته:

يمكن تقسيم الحديث الموضوعي إلى نوعين:

الأول: الحديث الموضوعي العام: وهو الذي بين أطراف موضوعه وحدة في الغاية فقط، لا في أصْل المعنى.

بمعنى أن هذا الموضوع يكون له أصل في الأحاديث، ولكن تحته قضايا كثيرة مُتعدِّدة، لا يربِط بينها إلا وحدة الغاية، وهي وحدة محقَّقة، حتى وإن كانت بعيدة.

من ذلك مثلاً قضية الأدب، فهي تشمَل الأحاديث التي تتناوَل الأدب النبوي، في قضايا متعدِّدة، يَجمَع بينها أنها من جملة الأدب.

الثاني: الحديث الموضوعي الخاص: وهو الذي يقوم على وَحدة المعنى والغاية بين أطرافه وأفراده، فتكون الرابطة بينهما خاصة وقريبة.

من ذلك كل موضوع خاصّ من الموضوعات التي تناوَلها كتاب "الأدب المفرَد" للإمام البخاري، وكذلك موضوع "آداب النيَّة والإخلاص"، وموضوع "آداب المُجالَسة"، ونحو ذلك.ومن ذلك كتب الإمام الحافظ أبي بكر بن أبى الدنيا الكثيرة، ككتاب: "الصَّمت"، و"الشكر"، و"التوكل على الله"، و"التواضع والخمول"، وغيرها من كتُبه وكتب غيره من مشاهير العلماء، ومن ذلك موضوع "اليهود في السنة النبويَّة المطهرة"، وموضوع "منهج السنة في العلاقة بين الحاكم والمحكوم"، ونحو ذلك[1].

هذا وإن من المهم الانتباه إلى أنّ الحفّاظ - عليهم رحمات الله - أسهموا منذ مُصنَّفاتهم الأولى في تبويب موضوعاتِ صِحاحهم وسُننهم وجوامِعهم تبويبًا موضوعيًّا؛ وأكثرَوا من جمْع الأحاديث التي على شرائط كتُبهم في أبواب واحدة، أو أبواب متتالية مُتقارِبة.

هذا وإن ثَمَّةَ مناهج عديدةً لدراسة الحديث الموضوعي أهمها:

أولاً: منهج الدراسة الموضوعيَّة التي تقوم على استقصاء ما في كتُب السنة النبوية من أحاديث عن موضوع الدراسة.

[1] يُنظر: أ.د. عبدالرحمن البر: معنى الحديث الموضوعي وفوائد دراسته، مرجع سابق.

ثانيًا: منهج الدراسة الموضوعية التي تَعتمِد على جمْع أحاديث في موضوع الدراسة من مصادر مُحدَّدة من كتُب السُّنة.

ثالثًا: منهج الدراسة الموضوعية التي تَعتمِد على جمْع روايات حديثٍ واحد مع دراسة موضوعه[1].

04- فوائد الحديث الموضوعي:

للحديث الموضوعي - جمعًا كان أو شرحًا - فوائد كثيرة متعدِّدة:

- أن جمْع الأحاديث في الموضوع الواحد في مكانٍ واحدٍ يُعين على الفَهْم الصحيح للسُّنة، قبل أن يعمل الإنسان أو يُفتي بمقتضى واحدٍ منها، فيُخطئ.

فقد يَرِدُ الحديث في مكان، وتمامُ الغرض منه في مكان آخر، أو تأتي رواية بحكم، وتمامُ المقصود في رواية أخرى، فلا بد عندئذٍ من جمْع طرق الحديث ورواياته؛ ليَسهُل فَهْمُه ويَصِحّ، وقد يَرِد في الموضوع عدة أحاديث، لا يمكن فَهْم أحدها إلا في ضوء الأحاديث الأخرى، وإلا حصَل الغَلَط وسوء الفَهْم.

- أن جمْع أحاديث الموضوع الواحد في مكان واحد يُعين على إزالة ما قد يبدو من تعارُض بين بعض الأحاديث، فيتبيَّن المطلَق من المُقيَّد، والخاص من العام،

[1] يُنظر للتفصيل في هذه المناهج: "الحديث الموضوعي دراسة نظرية"؛ رمضان إسحاق الزّيّان، مجلة الجامعة الإسلامية، المجلد العاشر، العدد الثاني، ص 226- 234.

والناسخ من المنسوخ، ويُنَزَّل كلُّ حديث منزلتَهُ اللائقةَ به، ويُفْهَم المقصود منه على الصواب.

- أن جمْع أحاديث الموضوع الواحد في مكان واحد قد تكشِف سببًا لورود الحديث يُساعد على حُسْن الفَهْم، وقد تَبيَّن ارتباط الحكم في بعض الأحاديث بعلَّة مُعيَّنة، وربما كان هذا السبب وهذه العِلَّة مُزيلاً لتعارُضٍ يظهَر بين أحاديث الباب.

- أن جمْع أحاديث الموضوع الواحد في مكان واحدٍ يُساعِد على حُسْن الجمع بين ما قد يبدو بين معانيها من تَضادّ وتَناقُض، وعليَّ ترجيح بعضها على بعض إذا لم يمكن الجمع بحمل أحدهما على الآخر، أو توجيه كل منهما توجيهًا صحيحًا مناسِبًا.

- أن جمْع أحاديث الموضوع الواحد، وروايات الحديث المُتعدِّدة في مكان واحد، يُساعِد على كشْف ما قد يكون في بعض الأحاديث أو الطُّرق من عِلل، كالإرسال، أو التدليس، أو الشذوذ، أو الإدراج، أو غير ذلك مما يكون له أعظم الأثر في معرفة درجة الحديث، ومن ثَمَّ الاحتجاج أو عدم الاحتجاج به.

- أن جمْع الطرق والنصوص في موضوع واحد قد يؤدِّي إلى تقوية الحديث من خلال معرفة متابعاته وشواهده المتعددة.

- أن جمْع الطرق والمتون في مكان واحد يُساعِد في الترجيح عند التعارُض وعدم إمكان الجمع.

- أن الدراسة الموضوعيَّة للسنة النبويَّة المطهرة تكشِف لنا عن عَظمة هذه السنة وشمولها وكفايتها مع القرآن الكريم؛ لصُنْع الحياة الفاضِلة في مختلَف المجالات.

فالأحاديث الكثيرة في الموضوع الواحد، والتي قيلت في مناسبات متعدِّدة، وظروفٍ مُتنوِّعة، وأوقات مُتفاوِتة، ولأشخاص مختلفين، إذا ضُمَّ بعضُها إلى بعضٍ، كشَفت عن شمول رسالة الإسلام، وتمام وفائها بحاجة الموضوع[1].

- أن هذا النوع من الدراسات يتَّفِق مع روح العصر الحاضر الذي تتجدَّد فيه حاجات المجتمعات، وتَبرُز فيه أفكار ونظريات جديدة مع التقدم العلمي والتقني، حيث تُعطي هذه الدراسات رؤىً وحلولاً صحيحة، وتخرج للناس أحكامًا عامَّة تُغنيهم عن اللجوء إلى القوانين الوضعيَّة.

- أن هذه الدراسات تُساعِد في إبراز جوانِب متعدِّدة من الإعجاز في السُّنة النبوية الصحيحة، والتي تؤكد بوضوح أن السّنة النبوية وحيٌ من عند الله تعالى، وإن كان بالمعنى دون اللفظ؛ لأن مِثلَ هذا الإعجاز لا يتسنَّى لبشرٍ معرفته قبل قرون إلا عن مصدر إلهي.

- أن هذه الدراسات تُساعِد في تأصيل العلوم الشرعية الجديدة التي نشأت حديثًا لتلبية حاجات المسلمين العلميَّة في شتى مجالات المعرفة الإنسانية والإعلام الإسلامي، والاقتِصاد الإسلامي، وغيرها.

[1] يُنظر: أ.د. عبدالرحمن البر: معنى الحديث الموضوعي وفوائد دراسته 3- 4- 5، مرجع سابق.

- أن هذه الدراسات تُقدِّم الفوائد الجليلة لكلٍ من الدعاة والباحثين، بل أفراد المجتمع المسلم كله، من إحاطة تامة بيسر وسهولة بكل ما يتعلَّق بموضوع الدراسة في مكان واحد[1].

المحاضرة الثانية القضاء والقدر من خلال السنة النبوية

المقدمة: إن علم العقيدة أشرف العلوم، وأعظمها، وأهمها.وإن من أجلّ النعم وأوفاها وضوحَ العقيدة الإسلامية، وموافقتَها للفطر القويمة، والعقول السليمة، وسلامتها من التناقض والاضطراب واللبس والغموض؛ فألفاظها سلسة، ومعانيها بينة يفهمها العالم والعامي، والصغير والكبير.وأدلتها المستقاة من الكتاب والسنة تسبق إلى الأفهام ببادئ الرأي، وأول النظر، ويشترك كافة الخلق في إدراكها؛ فهي مثل الغذاء ينتفع به كل إنسان، بل كالماء الذي ينتفع به الصبي والرضيع، والرجل القوي والضعيف؛ فأدلة الكتاب والسنة سائغة جلية تقنع العقول، وتسكن النفوس، وتغرس الاعتقادات الصحيحة الجازمة في القلوب.ألا ترى أن من قدر على الابتداء فهو على الإعادة أقدر (وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْه) (الروم:27)، وأن التدبير لا ينتظم في دار واحدة بمُدبِّرين فكيف في جميع العالم؟! (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا) (الأنبياء: 22) وأن من خلق علم، ثم

[1] الحديث الموضوعي دراسة نظرية"؛ رمضان إسحاق الزّيّان، مجلة الجامعة الإسلامية، المجلد العاشر، العدد الثاني، ص 214- 215.

خلق كما قال تعالى: (أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) (الملك:14).فهذه الأدلة وأمثالها تجري مجرى الماء الذي جعل الله منه كل شيء حي[1].هذا وإن باب القدر لمن أعظم أبوب العقيدة، وشأنه شأن غيره من الأبواب الأخرى من حيث الوضوح والبيان، بل إن له شأناً عجيباً؛ لأن عامة الناس أعلم به من المتكلمين والفلاسفة؛ لأنه مسألة بديهية، والبديهي كلما زاد التعمق فيه بعد عن الإدراك[2]، فالإيمان بالقدر أمر فطري، والعرب في جاهليتها وإسلامها لم تكن تنكر القدر، كما صرَّح بذلك أحد أئمة اللغة وهو أحمد بن يحيى ثعلب بقوله: =ما في العرب إلا مثبت القدر خيره وشره أهل الجاهلية وأهل الإسلام [3].

وعندما بعث النبي ρ بيَّن هذا الأمر - كغيره - غاية البيان؛ فإن كلماتِه الجوامعَ النوافع في هذا الباب وغيره كفت وشفت، وجمعت وفرقت، وأوضحت وبينت، وحلَّت محل التفسير والبيان لما تضمنه القرآن.

ثم تلاه أصحابه من بعده، وتلقوا ذلك عنه، فاتبعوا طريقه القويم، وساروا على نهجه المستقيم، فجاءت كلماتهم كافية شافية، مختصرة نافعة؛ لقرب العهد، ومباشرة التلقي من مشكاة النبوة، التي هي مظهر كل نور، ومنبع كل خير، وأساس كل هدى؛ فكانوا بذلك أعظم الناس فهماً وفقهاً لهذا الباب، وأكثرهم إيماناً به وعملاً بمقتضاه، فأثَّر ذلك فيهم أيما تأثير، فكانوا -رضوان الله عليهم -أتقى الناس، وأكرم الناس، وأشجع الناس بعد الأنبياء- عليهم السلام-. ثم سلك أثرهم التابعون لهم بإحسان، فاقتفوا طريقهم، واهتدوا بهداهم، ودعوا إلى ما دعوا إليه،

---

(1) أشار إلى هذا المعنى اللطيف ابن الوزير اليماني، انظر =ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان ص348.

(2) أشار إلى هذا المعنى الشيخ محمد رشيد رضا، انظر =منهج الشيخ محمد رشيد رضا في العقيدة لتامر متولي ص586.

(3) =شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، اللالكائي 4/704_705.

ومضوا إلى ما كانوا عليه[1]. ثم بعد ذلك دبَّ في هذه الأمة داء الأمم، فركبت سنن من كان قبلها، فدخلت الفلسفات اليونانيةُ، والهنديةُ، والفارسيةُ، وغيرُها بلادَ المسلمين، وظهرت بدعة القدرية في البصرة ودمشق، فوقع أول شرك في هذه الأمة، وهو نفي القدر، وكان ذلك في عهد أواخر الصحابة - رضي الله عنهم - الذين أنكروا تلك البدعة، وأعلنوا البراءة منها ومن أهلها. ثم جاء من بعدهم علماء السلف، فتصدوا لتلك البدعة، وبينوا زيفها، وهتكوا سخفها، ودحضوا باطلها، وأظهروا الحق ونشروه، ودعوا الأمة إليه.

01- الإيمان بالقضاء والقدر من خلال القرآن والسنة النبوية:إن موضوع القضاء والقدر في الدين الإسلامي هو الركن السادس من أركان الإيمان، وقد تنازع الناس في هذا الموضوع منذ القديم وتناولته كل الأديان والملل والفلسفات وهو موضوع شائك ذو حدين، ونحن هنا لا نتناوله بالنظرة الفلسفية الباحثة عن ماهية الخير والشر، أو نتنازع في القدر، بل نتناوله بمفهوم شرعي كما ثبت في القرآن والسنة النبوية، حيث قال الله تعالى (ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير، لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور) (الحديد: 23)، وجاء في الحديث الصحيح عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ ، قَالَ :

(كُنْتُ جَالِسًا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَنَاقَتِي مَعْقُولَةٌ بِالْبَابِ ، إِذْ دَخَلَ عَلَيْهِ نَفَرٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ ، فَقَالُوا : يَا رَسُولَ اللهِ ، جِئْنَاكَ لِنَتَفَقَّهَ فِي الدِّينِ ، وَنَسْأَلَكَ عَنْ أَوَّلِ هَذَا الْأَمْرِ ، مَا كَانَ ؟ قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : كَانَ اللهُ وَلَيْسَ شَيْءٌ غَيْرَهُ ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ، ثُمَّ كَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ ، ثُمَّ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ .

(1) انظر شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل لابن القيم ص4.

قَالَ : فَجَاءَ رَجُلٌ فَقَالَ : يَا عِمْرَانُ ، أَدْرِكْ نَاقَتَكَ ، فَقَدِ انْفَلَتَتْ ، فَإِذَا السَّرَابُ يَنْقَطِعُ دُونَهَا ، وَايْمُ اللهِ لَوَدِدْتُ أَنَّى كُنْتُ تَرَكْتُهَا)[1] . إن الإيمان بموضوع القضاء والقدر من أركان الإيمان ، ومن أسمى المقاصد في الدين والإيمان، والتسليم به يعد قطب رحى التوحيد ونظامه[2]، وكل الأديان والملل والنحل والمذاهب الفكرية والفلسفات الإنسانية تناولته بطريقة أو بأخرى، وهو موضوع شائك وخطير زل فيه كثير من الناس لأنه سلاح ذو حدين، وهذه المسألة كانت وما زالت من أعصى المشاكل التي تواجه الباحث عن ماهية الخير والشر والقضاء الإلهي في خلقه. . وقد التبس الأمر على بعض الناس في شأن هذه الكتابة المسبقة في علم الله الأزلي فاستسلموا لما سطر في الكتاب - اللوح المحفوظ - واعتبروه قدرا محتوما فلا ينفع معه عمل ولا سبب ما دامت كل الأمور قد أبرمت قبل خلق الإنسان وخلق كل الكون فهذا فهم سقيم لأمر القضاء والقدر. وهنا يرد الإشكال الحقيقي في الموضوع - والذي يحاول المقال الإجابة عنه - ذلك الفهم الذي لا يميز بين العلم بمعنى الأخبار والكشف لكل شيء في علم الله الأزلي وقد أخبرنا الله به لنؤمن به، كما قال تعالى: (ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض إن ذلك في كتاب إن ذلك على الله يسير) (الحج : 70).وهذا العلم خاص بالله تعالى لأنه أحاط بكل شيء علما ويعلم الأمور قبل أن تقع وذلك من كمال ألوهيته وربوبيته فالله تعالى الحكيم لم يرد إنسانا مجبورا أبدا، وإلا لماذا جعل له العقل ووهب له القدرة وقال تعالى(إنا كل شيء خلقناه بقدر) (القمر 49". وقال تعالى: (بديع السماوات والأرض وإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون) (البقرة: 117). وقال تعالى:(هو الذي خلقكم

[1] صحيح ابن حبان باب بدء الخلق، ذكر الإخبار بأن الله جل وعلا كان و لاشئ غيره ،ح 6140، ج 14، ص 7

[2] إبن القيم الجوزية ، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، ص 02

من طين ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده ثم أنتم تمترون) (الأنعام 2). وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن أول ما خلق الله القلم، فقال له اكتب، قال: رب وماذا أكتب ؟ قال : اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة)[1]. وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :(كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ، قال:وعرشه على الماء)[2]

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين فما أرسلني في حاجة قط فلم تهيأ إلا قال : " لو قضي كان، أو لو قدر كان " رواه البيهقي في القضاء والقدر. ونحن هنا في موضوعنا هذا لا نريد أن نتنازع في القدر وهو منهي عنه، بل نثبته كما جاء في الكتاب والسنة وفهم الصحابة والعلماء الصالحين الناصحين للأمة، لأن التنازع فيه منزلق خطير غير مأمون العواقب، فقد غضب رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم عندما سمع أصحابه يتنازعون في القدر فقال لهم : " أبهذا أمرتم ؟ أم بهذا أرسلت إليكم ؟ إنما هلك من كان قبلكم حين تنازعوا في هذا الأمر، عزمت عليكم ألا تنازعوا فيه . وقد أخرج الإمام مسلم في صحيحه من حديث يحي بن يعمر قال : عَنْ يَحْيَى بْنِ يَعْمَرَ قَالَ :(كَانَ أَوَّلَ مَنْ قَالَ فِي الْقَدَرِ بِالْبَصْرَةِ مَعْبَدٌ الْجُهَنِيُّ ، فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَحُمَيْدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْحِمْيَرِيُّ حَاجَّيْنِ أَوْ مُعْتَمِرَيْنِ ، فَقُلْنَا : لَوْ لَقِينَا أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِ

[1] صحيح مسلم - كتاب القدر - باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام – ح 2653، ج08، ص 51

[2] صحيح مسلم - كتاب الإيمان، ح 08، ج 01، ص 28

رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَسَأَلْنَاهُ عَمَّا يَقُولُ هَؤُلَاءِ فِي الْقَدَرِ ، فَوُفِّقَ لَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ دَاخِلًا الْمَسْجِدَ ، فَاكْتَنَفْتُهُ أَنَا وَصَاحِبِي ، أَحَدُنَا عَنْ يَمِينِهِ ، وَالْآخَرُ عَنْ شِمَالِهِ ، فَظَنَنْتُ أَنَّ صَاحِبِي سَيَكِلُ الْكَلَامَ إِلَيَّ ، فَقُلْتُ : أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ ، إِنَّهُ قَدْ ظَهَرَ قِبَلَنَا نَاسٌ يَقْرَؤُونَ الْقُرْآنَ ، وَيَتَقَفَّرُونَ الْعِلْمَ ، وَذَكَرَ مِنْ شَأْنِهِمْ ، وَأَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنْ لَا قَدَرَ ، وَأَنَّ الْأَمْرَ أُنُفٌ ، قَالَ : فَإِذَا لَقِيتَ أُولَئِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنِّي بَرِيءٌ مِنْهُمْ ، وَأَنَّهُمْ بُرَآءُ مِنِّي ، وَالَّذِي يَحْلِفُ بِهِ عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ لَوْ أَنَّ لِأَحَدِهِمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا فَأَنْفَقَهُ ، مَا قَبِلَ اللهُ مِنْهُ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ ثُمَّ قَالَ : حَدَّثَنِي أَبِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ قَالَ : بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعَرِ ، لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ ، وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ ، حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ ، وَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ ، أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِسْلَامِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ، قَالَ : صَدَقْتَ ، قَالَ : فَعَجِبْنَا لَهُ ، يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ ، قَالَ : فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ ، قَالَ : أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ ، وَمَلَائِكَتِهِ ، وَكُتُبِهِ ، وَرُسُلِهِ ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ ، خَيْرِهِ وَشَرِّهِ ، قَالَ : صَدَقْتَ ، قَالَ : فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ ، قَالَ : أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ ، قَالَ : فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ ، قَالَ : مَا الْمَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ ، قَالَ : فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَتِهَا ، قَالَ : أَنْ تَلِدَ الْأَمَةُ رَبَّتَهَا ، وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي

الْبُنْيَانِ ، قَالَ : ثُمَّ انْطَلَقَ ، فَلَبِثْتُ مَلِيًّا ثُمَّ قَالَ لِي : يَا عُمَرُ ، أَتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ ؟ قُلْتُ : اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، قَالَ : فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ ، أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ)[1] .

01- تعريف القضاء والقدر، والفرق بينهما

أ- التعريف وفي الاصطلاح الشرعي: ويمكن أن يعرف القضاء والقدر بأحد التعريفات التالية:

- هو ما سبق به العلم، وجرى به القلم مما هو كائن إلى الأبد، وأنه عز وجل قدر مقادير الخلائق، وما يكون من الأشياء قبل أن تقع في الأزل، وعلم سبحانه أنها ستقع في أوقات معلومة عنده –تعالى- وعلى صفات مخصوصة؛ فهي تقع على حسب ما قدرها[(2)].

- وعُرِّف بأنه: تقدير الله للكائنات حسبما سبق به علمُه، واقتضته حكمته[(3)].وهو تعريف مختصر لطيف.

- هو تقدير الله -تعالى - للأشياء في القِدَم، وعلمه - سبحانه - أنها ستقع في أوقات معلومة وعلى صفات مخصوصة، وكتابته لذلك، ومشيئته له، ووقوعها على حسب ما قدرها، وخلقه لها.[(4)]

وهذا التعريف من أجمع التعاريف، وأشملها.

---

[1] صحيح مسلم - كتاب الإيمان، ح 08، ج 01، ص 28

[(2)] هذا تعريف السفاريني انظر لوامع الأنوار البهية 348/1.

[(3)] هذا تعريف الشيخ محمد بن عثيمين انظر كتابه رسائل في العقيدة ص37.

[(4)] هذا تعريف الشيخ د. عبدالرحمن المحمود. انظر كتابيه: القضاء والقدر ص39 وموقف ابن تيمية من الأشاعرة 1310/3.

ويمكن أن يعرف القضاء والقدر تعريفاً مختصراً فيقال:هو علم الله بالأشياء،وكتابته، ومشيئته، وخلقه لها.

02- الفروق بين القضاء والقدر: اختلف العلماء في ذلك على أقوال:

أ-القضاء والقدر أمران متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر؛ لأن أحدهما بمنزلة الأساس وهو القدر، والآخر بمنزلة البناء وهو القضاء؛ فمن رام الفصل بينهما فقد رام هدم البناء ونقضه [1],قال الراغب الأصفهاني:القضاء من الله أخص من القدر؛ لأنه الفصل بين التقدير؛ فالقدر هو التقدير، والقضاء هو الفصل والقطع.

ب- القضاءُ هو العلم السابق الذي حكم الله به في الأزل، والقدرُ هو وقوع الخلق على وزن الأمر المقضي السابق[2].قال الجرجاني:والفرق بين القدر والقضاء هو أن القضاء وجود جميع الموجودات في اللوح المحفوظ مجتمعة، والقدر وجودها متفرقة في الأعيان بعد حصول شرائطها [3].

ج- أنه لا فرق بين القضاء والقدر؛ فكل واحد منهما بمعنى الآخر؛ فإذا أطلق التعريف على أحدهما شمل الآخر؛ ويعبر عن كل واحد منهما كما يعبرعن الآخر؛فهما مترادفان من هذا الاعتبار، فيقال:هذا قدر الله، ويقال:هذا قضاء الله،ويقال:هذا قضاء الله وقدره[4].والخلاصة القول:أنهما إذا اجتمعا افترقا؛ بحيث يصبح لكل واحد منهما مدلول بحسب ما سبق من الأقوال.وإذا افترقا

(1) لسان العرب 186/5، والنهاية 78/4، وانظر الفروق في اللغة لأبي هلال العسكري ص328.

(2) انظر القضاء والقدر د.عمر الأشقر ص27.

(3) التعريفات ص174.

(4) انظر القضاء والقدر د.عبدالرحمن المحمود ص41.

اجتمعا؛بحيث إذا أفرد أحدهما دخل فيه الآخر[1].وبالجملة فالأمر يسير، والخلاف فيها لا يترتب عليه شيء.

03- مراتب القضاء والقدر:الإيمان بالقدر يقوم على أربعة أركان تُسمى مراتب القدر أو أركانه، وهي المدخل لفهم باب القدر، ولا يتم الإيمان به إلا بتحقيقها كلها؛ فبعضها مرتبط ببعض، فمن أقر بها جميعاً اكتمل إيمانه بالقدر، ومن انتقص واحداً منها أو أكثر اختل إيمانه بالقدر، وهذه الأركان هي: 1-العلم 2-الكتابة 3-المشيئة 4-الخلق

وقد نظمها بعضهم بقوله:

عِلْمٌ كِتابةُ مولانا مشيئَتُهُ وخَلْقُهُ وهو إيجادٌ وتكوينُ

المرتبة الأولى: العلم: وهو الإيمان بأن الله عالم بكل شيء جملة وتفصيلاً، أزلاً، وأبداً، سواء كان ذلك مما يتعلق بأفعاله، أو بأفعال عباده؛ فعلمه محيط بما كان، وما سيكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون. ويعلم الموجود، والمعدوم، والممكن، والمستحيل، ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض. وقد عَلِمَ جميع خلقه قبل أن يخلقهم، فعلم أرزاقهم، وآجالهم، وأقوالهم، وأعمالهم، وجميع حركاتهم، وسكناتهم، وأهل الجنة، وأهل النار. وهذه المرتبة - وهي العلم السابق - اتفق عليها الرسل من أولهم إلى آخرهم، واتفق عليها جميع الصحابة، ومن تبعهم من هذه الأمة، وخالفهم مجوسُ هذه الأمة -القدرية الغلاة - [2].

([1]) انظر الدرر السنية، جمع الشيخ عبدالرحمن بن قاسم 1/512_513.

([2]) انظر شفاء العليل ص61.

المرتبة الثانية: الكتابة: وهي الإيمان بأن الله كتب ما سبق به علمه من مقادير الخلائق إلى يوم القيامة في اللوح المحفوظ.وقد أجمع الصحابة، والتابعون، وجميع أهل السنة والحديث على أن كل كائن إلى يوم القيامة فهو مكتوب في أم الكتاب[1]، التي هي اللوح المحفوظ، والذكر، والإمام المبين، والكتاب المبين.

المرتبة الثالثة:المشيئة:وهذه المرتبة تقتضي الإيمان بمشيئة الله النافذة،وقدرته الشاملة فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه لا حركة، ولا سكون،ولا هداية، ولا إضلال إلا بمشيئته.وهذه المرتبة قد دل عليها إجماع الرسل من أولهم إلى آخرهم، وجميع الكتب المنزلة من عند الله،والفطرة التي فطر الله عليها خلقه،وأدلة العقل والبيان [2].

المرتبة الرابعة: الخلق:وهذه المرتبة تقتضي الإيمان بأن جميع الكائنات مخلوقة لله بذواتها وصفاتها، وحركاتها، وبأن كل من سوى الله مخلوق مُوْجَدٌ من العدم، كائن بعد أن لم يكن.وهذه المرتبة دلت عليها الكتب السماوية، وأجمع عليها الرسل عليهم الصلاة والسلام واتفقت عليها الفطر القويمة، والعقول السليمة[3]

04-الأدلة من السنة على وجوب الإيمان بالقضاء والقدر: لقد تظافرت الأدلة من السنة النبوية المطهرة على الإيمان بالقضاء والقدر منها:

أ- أن الإيمان بالقدر ركن من أركان الإيمان: ولا يتم إيمان العبد إلا به، ورد في أعظم حديث في الإسلام, وهو حديث جبريل _عليه السلام وكان ذلك في آخر حياة

([1]) انظر شفاء العليل ص89.

([2]) شفاء العليل ص92.

([3]) انظر شفاء العليل ص108.

النبي ρ وقد قال (في آخر الحديث: =فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم) [1].
فمعرفته من الدين، وهي واجبة ولو على سبيل الإجمال.

ب- عن جابر بن عبد الله τ قال: قال رسول الله ρ: (لا يؤمن عبدٌ حتى يؤمن بالقدر خيره وشره من الله، وحتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه [2].

ج- روى مسلم في الصحيح عن طاووس[3] قال: (أدركت ناساً من أصحاب رسول الله :يقولون: كل شيء بقدر، قال: وسمعت عبد الله بن عمر يقول: كل شيء بقدر حتى العجز والكيْس، أو الكيس والعجز)[4].

د- قال ρ: (وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل: قَدَرُ اللهِ وما شاء فعل)[5].

هـ- أن الصحابة سألوا النبي ρ عن أدق الأمورفي القدر: كما جاء في حديث جابر في صحيح مسلم عندما جاء سراقة بن مالك بن جعشم إلى النبيρ فقال: يا رسول الله بيِّن لنا ديننا كأنا خلقنا الآن، فيما العمل اليوم؟ أفيما جفت به الأقلام وجرت

---

(1) رواه مسلم (8).

(2) رواه الترمذي (2144) وقال: =وهذا حديث لا نعرفه إلا من حديث عبدالله بن ميمون، وعبدالله بن ميمون منكر الحديث، ولكن الحديث له شواهد تؤيده+، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (1723)، وفي سلسلة الأحاديث الصحيحة (2439).

(3) هو طاووس بن كيسان الفقيه القدوة عالم اليمن أبو عبدالرحمن الفارسي ثم اليمني الجندي، الحافظ، سمع من زيد بن ثابت وعائشة وأبي هريرة وزيد بن أرقم وابن عباس _ رضي الله عنهم _ ولازم ابن عباس مدة، وهو معدود في كبراء أصحابه، روى عنه عطاء ومجاهد وجماعة من أقرانه، توفي سنة 106هـ انظر سير أعلام النبلاء 5/38_49.

(4) مسلم (2655)، ورواه مالك في الموطأ 879/2، ورواه أحمد في المسند، تحقيق: أحمد شاكر 152/8 (5893).

(5) رواه مسلم (2664).

المقادير؟ أم فيما نستقبل؟قال: ρ (لا، بل فيما جفت به الأقلام، وجرت المقادير قال: ففيم العمل؟ فقال: اعملوا فكل ميسر. وفي رواية كل عامل ميسر لعمله) [1].

و-أن الصحابة علَّموا تلاميذهم من التابعين ذلك: وسألوهم؛ ليختبروهم، وينظروا في فهمهم لهذا الباب، كما جاء في صحيح مسلم أن أبا الأسود الدؤلي قال: قال لي عمران بن الحصين: =أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه، أشيء قُضي عليهم، ومضى عليهم من قَدَرِ ما سبق؟ أو فيما يُستقبلون به مما أتاهم به نبيهم، وثبتت الحجة عليهم؟

فقلت: بل شيءٌ قُضي عليهم. قال: فقال: أفلا يكون ظلماً؟قال: ففزعت من ذلك فزعاً شديداً، قلت: كل شيء خلق الله، وملك يده، فلا يُسأل عما يفعل وهم يسألون.

فقال لي: يرحمك الله، إني لم أُرِدْ بما سألتك إلا لأَحْزُر[2] عقلك [3].

05- أقوال السلف في القضاء والقدر:ورد عن السلف الصالح أقوال جميلة، وكلمات مضيئة، توضح معنى القدر، وتدل على أهميته، وتحث على الإيمان به، وتوصي بالرضا بما يقدره الله ويقضيه، وتحذر من ضد ذلك، وتبين إيمان السلف العميق، وفهمهم الدقيق لذلك الركن العظيم من أركان الإيمان.**فمن ذلك مايلي:**

-قال الوليد ابن الصحابي الجليل عبادة بن الصامتτ(دخلت على عبادة وهو مريض أتخايل فيه الموت، فقلت: يا أبتاه أوصني، واجتهد لي.فقال: أجلسوني، فلما

---

(1) مسلم (2648).

(2) الحَزْر: التقدير، والحَدْسُ، وإعمال الرأي، والمراد هنا: أني أردت أن أمتحن عقلَك، وأقدِّرَ ما وصلت إليه وأعمل رأيي في معرفة مدى فهمك. انظر معجم مقاييس اللغة لابن فارس 55/2، ولسان العرب لابن منظور 185/4_186، وصحيح مسلم بشرح النووي 199/16.

(3) مسلم باب القدر (2650).

أجلسوه قال: يا بني، إنك لن تجد طعم الإيمان، ولن تبلغ حقيقة العلم بالله تبارك وتعالى حتى تؤمن بالقدر خيره وشره. قلت: يا أبتاه وكيف لي أن أعلم ما خير القدر وما شره؟قال: تعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك، يا بني إني سمعت رسول الله ρ يقول:(إن أول ما خلق الله تعالى القلم، ثم قال: اكتب، فجرى بتلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة). يا بني إن مت ولست على ذلك دخلت النار) [1].

- قال ابن عباس رضي الله عنهما: (القدر نظام التوحيد فمن وحَّد الله عزوجل وآمن بالقدر فهي العروة الوثقى التي لا انفصام لها، ومن وحد الله تعالى وكذَّب بالقدر نقض التوحيد)[2].ويُروى هذا الأثر بلفظ:(القدر نظام التوحيد؛ فمن وحَّد الله، وآمن بالقدر تم توحيده، ومن وحّد الله، وكذَّب بالقدر نقض توحيده) [3].

- وقال أيضاً: (كل شيء بقدر حتى وضْعُكَ يَدَكَ على خدك)[4].

- قال عكرمة: (سُئل ابن عباس: كيف تَفَقَّدَ سليمانُ الهدهدَ من بين الطير؟قال: إن سليمان صلوات الله عليه نزل منزلاً فلم يَدْرِ ما بُعْدُ الماء، وكان الهدهد مهندساً، قال: فأراد أن يسأله عن الماء ففقده. قلت: وكيف يكون مهندساً؟ والصبي ينصب له الحبالة فيصيده؟قال: إذا جاء القدر حال دون البصر) [5].

---

(1) أخرجه الإمام أحمد 317/5، والترمذي (4155)، وقال الألباني بعد أن تتبع طرقه: =فالحديث صحيح بلا ريب حاشية مشكاة المصابيح 34/1.

(2) أخرجه الإمام عبدالله بن أحمد في السنة 422/2، والفريابي في القدر ص159_160، وكذا الآجري في الشريعة ص215.

(3) وانظر مجموع الفتاوى 113/3، وشرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة 681/4.

(4) أخرجه البخاري في خلق أفعال العباد ص26.

(5) أخرجه عبدالله بن أحمد في السنة 412/2.

_ قال كعب بن زهير:

لو كنت أعْجَبُ من سعيُ الفتى وهو مخبوءٌ له
يسعى الفتى لأمورٍ ليس يدركها والنفسُ واحدٌ والهمُّ منتشر
والمرءُ ما عاش ممدودٌ له أمل لا تنتهي العين حتى ينتهي

_ قال الحسن: (إن الله خلق خلقاً، فخلقهم بقدر، وقسم الآجال بقدر، وقسم أرزاقهم بقدر، والبلاء والعافية بقدر) [2].

-وقال أيضاً: (من كذب بالقدر فقد كذب بالإسلام) [3].

- وقال في مرضه الذي مات فيه: (إن الله قدر أجلاً، وقدر معه مرضاً، وقدر معه معافاة، فمن كذب بالقدر فقد كذب بالقرآن، ومن كذب بالقرآن فقد كذب بالحق) [4].

- وهذه أبيات جميلة للشافعي تبين حقيقة الإيمان بالقدر، قال عنها الإمام ابن عبد البر[5] في (الانتقاء): (إنها من شعره الذي لا يختلف فيه، وهو أصح شيء عنه) [6].

(1) ديوان كعب بن زهير ص77.

(2) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة 682/4.

(3) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة 682/4.

(4) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة 682/4.

(5) هو أبو عمر يوسف بن عبدالله بن محمد بن عبدالبر الأندلسي القرطبي المالكي المحدث الفقيه الثقة صاحب التمهيد والاستذكار والاستيعاب وبهجة المجالس وغيرها من المصنفات الماتعة، فهو ممن فُتح عليه في التصنيف والتأليف، توفي سنة 463. انظر سير أعلام النبلاء 153/18، وشذرات الذهب لابن العماد 314/3.

(6) الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء لابن عبدالبر ص80.

وقال: (وهذه الأبيات من أثبت شيء في الإيمان بالقدر) [1].

والأبيات هي:

وما شئتَ كان وإن لم أشأْ ... وما شئتُ إن لم تشأْ لم يكنْ

خلقتَ العباد على ما علمتَ ... وفي العلم يجري الفتى والمسنْ

على ذا مننتَ وهذا خذلتَ ... وهذا أعنت وذا لم تُعِنْ

فمنهم شقيٌّ ومنهم سعيد ... ومنهم قبيح ومنهم حسنْ[2]

يقول: وما شئت أي أنت يا رب كان أي بأمرك لا محالة؛ لأن مشيئتك نافذة، وإن لم أشأ أنا أيها العبد، و ما شئتُ أنا =إن لم تشأ يا رب لم يكن؛ لأنه لا يكون شيء إلا بمشيئتك.

خلقت العباد على ما علمت:أي حسب ما سبق من علمك الأزلي، وفي العلم يجري الفتى والمسن: أي بمقتضى هذا العلم السابق يجري ويعمل الصغير والكبير، ولا يخرج أحد عن ذلك. على ذا مننت رحمةً وتفضلاً، وهذا خذلت حكمةً وعدلاً، وهذا أعنت بمنك وفضلك، وذا لم تعن بحكمتك وعدلك؛ فمنهم شقي ممن سبقت له الشقاوة، ومنهم سعيد ممن سبقت له الحسنى والسعادة، ومنهم قبيح ومنهم حسن فالله عزوجل هو الذي يصورهم في الأرحام كيف يشاء.

([1]) المصدر السابق ص81.

([2]) الانتقاء ص80، وانظر الاعتقاد للبيهقي ص88، وشرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة 702/4، وديوان الشافعي ص131_132، تحقيق د. محمد عبدالمنعم خفاجي.

- قال الإمام أحمد: (القدر قدرة الله) [1]. قال ابن القيم تعليقاً على هذه الكلمة: (واستحسن ابن عقيل هذا الكلام جداً، وقال: هذا يدل على دقة علم أحمد وتَبَحُّره في معرفة أصول الدين. وهو كما قال أبو الوفاء؛ فإن إنكار القدر إنكار لقدرة الرب على خلق أعمال العباد، وكتابتها، وتقديرها) [2].

- وقال مطرِّف بن عبد الله:(ليس لأحد أن يصعد، فيلقي نفسه من شاهق، ويقول: قدَّر لي ربي، ولكن يحذر، ويجتهد، ويتقي؛ فإن أصابه شيء علم أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له)[3].

- قال المبرِّد عن أبي عثمان المازني قال:(سُئل علي بن موسى الرضا: أَيُكَلِّف الله العباد ما لا يُطيقون؟ قال: هو أعدل من ذلك، قيل: فيستطيعون أن يفعلوا ما يريدون؟ قال هم أعجز من ذلك)[4].

-قال محمود الوراق:

ليس عندي إلا الرضا بقضاء ... ه فيما أحببتُه أو كرهتُه
لوليِّ الأمور يختار منها ... خيرَها لي عواقباً ما عرفته
فأرى أن أردَّ ذاك إلى من ... عنده العلم الذي قد

(1) مجموع الفتاوى 308/8، وطريق الهجرتين لابن القيم ص170، وشفاء العليل ص59.
(2) شفاء العليل ص 59_60.
(3) سير أعلام النبلاء للذهبي 191/4.
(4) سير أعلام النبلاء 391/19.
(5) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة 693/4.

_ وقال الآخر:

ما قضى الله كائنٌ لا محالهْ والشقيُّ الجهولُ من لامَ

- وقال الآخر:

اقنعْ بما ترزقُ يا ذا الفتى فليس ينسى ربُنا نملهْ

إن أقبل الدهرُ فَقُمْ قائماً وإن تولى مدبراً نَمْ لَهْ[2]

6- مراتب القضاء والقدر: هي[3]:

1-سبق علم الله تعالى لكل شيء قبل خلقه .

2-كتابة الله تعالى للأشياء كيف تكون.

3- مشيئة الله تعالى للأشياء كيف تكون.

4-خلق الله تعالى للأشياء .

(فهو تعالى يعلم أزلا كل ما ستؤول إليه الأمور مسبقا، وكتب مقادير الخلق في اللوح المحفوظ كما جاء في حديث القلم الذي سبق ذكره، قال الله تعالى:(وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا الله ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين)(الأنعام 59) ، ووفقا لكل ذلك كانت الكتابة والمشيئة والإرادة والخلق إعقل عن الله أيها الإنسان وصدق ما أخبرك به فمنه الإيجاد ، ومنه الإمداد ، ومنه الهداية والرشاد، ومن تيقن بالقضاء والقدر حقق الإيمان، ومن كذب به باء بالخسران والبوار

(1) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي ص270.

(2) المرجع السابق.

3 د. محمد عبد الله محمد العتيبي، القضاء والقدر في ضوء العقيدة الإسلامية ، ص 276

والحمد لله رب العالمين في الأولى والآخرة، فالله تعالى خلق لك الطاقة، وخلق لك العقل الذي يخطط ويوجه ويفكر، وأعطى لك موضوع العمل والفعل، وخلق لك الزمان والمكان وخلق لك المادة. فالله خالق كل شيء فعلا، كما قال سبحانه:(وخلق كل شيء فقدره تقديرا)الفرقان الآية 2" والإنسان لم يخلق أي واحد من هذه العناصر كلها ، فالعناصر كلها من خلق الله تعالى ، تقديره، كتابته ، مشيئته وعلمه الأزلي...، لكن في توجيه الطاقة يظهر الاختيار والحرية الإنسانية، لا جبر ولا إكراه ولا يستقل الإنسان بخلق الفعل، لأن الله تعالى قال: (والله خلقكم وما تعملون) (الصافات 96)

متى يجوزومتى ينفع الاحتجاج بالقدر :

القدر علمه الله تعالى ، كتبه، شاءه وخلقه، فلا يجوز اعتراض على ما هو مقضي ومقدر من الله تعالى ، الفعال لما يريد، لكنه يجوز الاحتجاج بالقدر، أي تذكره كحجة لك بعد وقوعه وانتهاء أمره، كالذي فعل معصية فندم وتاب منها وترك المعاودة إليها ، كما فعل آدم عليه السلام، فيقول الإنسان بعد ذلك قدرها الله لي قبل أن أخلق وعلمها، واستغفر الله على ما كان .فهذا من التوحيد ومعرفة أسماء الرب سبحانه وتعالى وصفاته، وذكرها هنا ينتفع به الذاكر والسامع، لأنه لا يدفع بالقدر أمرا ولا نهيا، ولا يبطل به شريعة بل يخبر بالحق المحض على وجه التوحيد والبراءة من الحول والقوة، ويوضح ذلك حديث احتجاج آدم لموسى عليهما الصلاة السلام، حيث لامه موسى عليه السلام على الأكل من الشجرة ، وإخراجنا من الجنة ، ففي صحيح مسلم عن عمرو عن طاوس قال سمعت أبا هريرة يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم احتج آدم وموسى فقال موسى يا آدم أنت أبونا خيبتنا وأخرجتنا من الجنة فقال له آدم أنت موسى اصطفاك الله بكلامه وخط

لك بيده أتلومني على أمر قدره الله علي قبل أن يخلقني بأربعين سنة فقال النبي صلى الله عليه وسلم فحج آدم موسى فحج آدم موسى وفي حديث ابن أبي عمر وابن عبدة قال أحدهما خط وقال الآخر كتب لك التوراة بيده قوله صلى الله عليه وسلم : (احتج آدم وموسى) قال أبو الحسن القابسي : التقت أرواحهما في السماء ، فوقع الحجاج بينهما . قال القاضي عياض : ويحتمل أنه على ظاهره . وأنهما اجتمعا بأشخاصهما ، وقد ثبت في حديث الإسراء أن النبي صلى الله عليه وسلم اجتمع بالأنبياء ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين في السماوات ، وفي بيت المقدس ، وصلى بهم . قال : فلا يبعد أن الله تعالى أحياهم كما جاء في الشهداء . قال : ويحتمل أن ذلك جرى في حياة موسى ; سأل الله تعالى أن يريه آدم فحاجه .قوله صلى الله عليه وسلم : فقال موسى : يا آدم أنت أبونا خيبتنا ، وأخرجتنا من الجنة (وفي رواية أنت آدم الذي أغويت الناس ، وأخرجتهم من الجنة وفي رواية أهبطت الناس بخطيئتك إلى الأرض . معنى (خيبتنا) أوقعتنا في الخيبة ، وهي الحرمان والخسران . وقد خاب يخيب ويخوب ، ومعناه كنت سبب خيبتنا وإغوائنا بالخطيئة التي ترتب عليها إخراجك من الجنة ، ثم تعرضنا نحن لإغواء الشياطين . والغي الانهماك في الشر . وفيه جواز إطلاق الشيء على سببه . وفيه ذكر الجنة وهي موجودة من قبل آدم . هذا مذهب أهل الحق. قوله : (اصطفاك الله بكلامه وخط لك بيده) في (اليد) هنا المذهبان السابقان في كتاب الإيمان ومواضع في أحاديث الصفات : أحدهما الإيمان بها ، ولا يتعرض لتأويلها ، مع أن ظاهرها غير مراد . والثاني تأويلها على القدرة . ومعنى (اصطفاك) أي اختصك وآثرك بذلك. قوله : (أتلومني على أمر قدره الله علي قبل أن يخلقني بأربعين سنة ؟) المراد بالتقدير هنا الكتابة:في اللوح المحفوظ ، وفي صحف التوراة وألواحها ، أي كتبه

علي قبل خلقي بأربعين سنة ، وقد صرح بهذا في الرواية التي بعد هذه ، فقال : بكم وجدت الله كتب التوراة قبل أن أخلق ؟ قال موسى : بأربعين سنة . قال : أتلومني على أن عملت عملا كتب الله علي أن أعمله قبل أن يخلقني بأربعين سنة ؟ فهذه الرواية مصرحة ببيان المراد بالتقدير ، ولا يجوز أن يراد به حقيقة القدر ، فإن علم الله تعالى وما قدره على عباده وأراد من خلقه أزلي لا أول له ، ولم يزل سبحانه مريدا لما أراده من خلقه من طاعة ومعصية ، وخير وشر. قوله صلى الله عليه وسلم : (فحج آدم موسى) هكذا الرواية في جميع كتب الحديث باتفاق الناقلين والرواة والشراح وأهل الغريب : (فحج آدم موسى) برفع آدم ، وهو فاعل ، أي غلبه بالحجة ، وظهر عليه بها . ومعنى كلام آدم أنك يا موسى تعلم أن هذا كتب علي قبل أن أخلق ، وقدر علي ، فلا بد من وقوعه ، ولو حرصت أنا والخلائق أجمعون على رد مثقال ذرة منه لم نقدر ، فلم تلومني على ذلك ؟ ولأن اللوم على الذنب شرعي لا عقلي ، وإذ تاب الله تعالى على آدم ، وغفر له ، زال عنه اللوم فمن لامه كان محجوجا بالشرع . فإن قيل : فالعاصي منا لو قال : هذه المعصية قدرها الله علي لم يسقط عنه اللوم والعقوبة بذلك ، وإن كان صادقا فيما قاله . فالجواب أن هذا العاصي باق في دار التكليف ، جار عليه أحكام المكلفين من العقوبة واللوم والتوبيخ وغيرها ، وفي لومه وعقوبته زجر له ولغيره عن مثل هذا الفعل ، وهو محتاج إلى زجر ما لم يمت فأما آدم فميت خارج عن دار التكليف وعن الحاجة إلى الزجر ، فلم يكن في القول المذكور له فائدة ، بل فيه إيذاء وتخجيل . والله أعلم **شرح النووي على مسلم**) 154-153 , فتذكر القدر بعد وقوعه وانتهاء أمره ينفع صاحبه لأنه يسلم الله تعالى في القضاء والقدر ولا ينكره، فينور الله قلبه ويزيده إيمانا بربه وصفاته وأسمائه. ولا ينسب له الحتم والظلم،

ويقول ما دام كتبه أفعله فلا حيلة لي ولا طاقة ولا اختيار ولا... ، بل ذكر القضاء والقدر هنا حجة على علم الله منذ الأزل. القضاء والقدر أ.د يوسف تيتواح

- متى لا يجوز الاحتجاج بالقدر ويضر بصاحبه :

ولا يجوز الاحتجاج بالقدر في الحال والمستقبل مثلا : إنسان الآن قائم على محرم أو ترك واجب، فيلومه عليه لائم فيحتج بالقدر على إقامته عليه وإصراره بحجة هو **مكتوب علي**، ولا يبذل أدنى جهد لترك الحرام وفعل الواجب، فهذا لا يجوز ويضر بصاحبه، لأنه لا يعلم هل قدر الله له عن علمه السابق أنه يستمر في المعصية أو يتوب .كذلك الذي يحتج بالقدر في المعاصي وترك الواجبات في المستقبل، بأنه سيضل في الطريق اتكالا على أنه مكتوب ومقدر، حتى يهديه الله كما ذكر تعالى عن حال المشركين في عبادتهم للأصنام:(وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون) الزخرف 20 ، فهذا ضد احتجاج من تبين له خطأ نفسية وندم وعزم كل العزم على أن لا يعود فإذا لامه لائم بعد ذلك قال : كان ما كان بقدر الله . فالقضاء والقدر سر الله تعالى في خلقه، لم يطلع على ذلك ملك مقرب ، ولا نبي مرسل، ذلك أن الإيمان والعبودية في الإسلام مبنيان على التسليم والرضا ، وعدم السؤال عن الحكمة في الأوامر والنواهي والشرائع، ولذلك الذين استجابوا للأنبياء كلهم لم يسألوا عن تفاصيل الحكمة فيما أمر الله ونهي، فما عرفوه من الحكمة عرفوه، وما أخفي عنهم لم يتوقفوا في انقيادهم وتسليمهم لانتفاء الطاعة والإيمان بالغيب، ولذلك كان السلف الصالح لهذه الأمة المختارة المرحومة - وهي أكمل الأمم إيمانا وعقولا ومعارف وطاعة وانقيادا - لا تسأل نبيها لم أمر الله بكذا؟ ولم نهى عن كذا ؟ ولم قدر كذا ؟ ولم فعل كذا؟ ... إلخ، لعلمهم أن ذلك مضاد للإيمان والاستسلام ،

ولذلك ذكر الإمام الطحاوي (ت 2321) رحمه الله أن أصل القدر سر الله تعالى في خلقه ، لم يطلع على ذلك ملك مقرب ولا نبي مرسل، والتعمق في ذلك ذريعة الخذلان، وسلم الحرمان ، ودرجة الطغيان، فالحذر كل الحذر من ذلك نظرا وفكرا ووسوسة ، فإن الله تعالى طوى علم القدر عن أنامه ، ونهاهم عن مرامه كما قال في كتابه : (لايسأل عما يفعل وهم يسألون) الأنبياء 23"، فمن سأل : لم فعل ؟ فقد رد حكم الكتاب ، ومن رد حكم الكتاب كان من الكافرين .

المحاضرة الثالثة الكفر من خلال السنة النبوية

أولاً: معنى الكفر في اللغة والإصطلاح:

1- **في اللغة:** قال ابن فارس -رحمه الله-:(الكاف والفاء والراء أصل صحيح يدل على معنى واحد، وهو الستر والتغطية، يقال لمن غطى درعه بثوبه قد كفر درعه،

والكفر الرجل المتغطي بسلاحه)[1].والكفر هو ضد الإيمان، سمي بذلك لأنه تغطية للحق، وكفران النعمة جحودها وسترها.[2]

2- **معنى الكفر في الإصطلاح:**ترد كلمة الكفر في النصوص، مراداً بها أحياناُ الكفر المخرج من الملة، وأحيانا المراد بها الكفر غير المخرج عن الملة[3] ذلك أن للكفر شعباً كما أن للإيمان شعباً، وكل شعبة من شعب الإيمان تسمى إيمانا قال الله تعالى: (وما كان الله ليضيع إيمانكم)(البقرة: 143)، وهذه الشعب منها ما يزول الإيمان بزوالها كشعبة الشهادة، ومنها ما لا يزول بزوالها كترك إماطة الأذى عن الطريق، وبينهما شعب متفاوتة تفاوتاً عظيماً.

وكذلك الكفر ذو أصول وشعب متفاوته: منها ما توجب الكفر، ومنها ما هي من خصال الكفار.يقول الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام:(وأما الآثار المرويات بذكر الكفر والشرك ووجوبهما بالمعاصي، فإن معناها عندنا ليست تثبت على أهلها كفراً ولا شركاً يزيلان الإيمان عن صاحبه، وإنما وجوهها: أنها من الأخلاق والسنن التي عليها الكفار والمشركون ". [4]

ثانيا: أقسام الكفر:الكفر الوارد في النصوص كفران: كفر أكبر: وهو الموجب للخلود في النار.وكفر أصغر: وهو الموجب لاستحقاق الوعيد دون الخلود [5]

---

(1) معجم مقاييس اللغة، مادة كفر (191/5/

(2) ينظر ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، مادة كفر، وابن منظور، مادة كفر.(191/5)

(3) يقسم بعض العلماء الكفر إلى قسمين كفر اعتقاد، كفر عمل وبعضهم إلى كفر أصغر وكفر أكبر وبعضهم إلى كفر عمل وكفر جحود وعناد والمؤدى واحد.

(4) الإيمان (9) الإيمان ومعالمه وسننه ، نشره الشيخ العلامة محمد ناصر الدين الألباني ، بدمشق ، في المكتب الإسلامي. ، وينظر ابن القيم كتاب الصلاة (53 – 54)

(5) ينظر ابن القيم، مدارج السالكين (337/1) وكتاب الصلاة (55)

1-الكفر الأكبر:وهو الموجب للخلود في النار، ويأتي في النصوص مقابلاً للإيمان، يقول الله تعالى: (فمنهم من آمن ومنهم من كفر) (البقرة: 253)، ويقول: (الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات)(البقرة: 257)، ويقول عز وجل: (كيف يهدي الله قوما كفروا بعد إيمانهم)(آل عمران: 86).

وهذا الكفر خمسة أنواع هي:1-كفر التكذيب: وهو اعتقاد كذب الرسل وهذا الاعتقاد قليل في الكفار، لأن الله أيد رسله بالبراهين الواضحة، وإنما حالهم كما وصفهم الله قال الله تعالى: (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً) (النمل: 14)، ولذلك قال الله عز وجل لرسوله: (فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) (الأنعام: 33).

2-كفر الإباء والاستكبار: مثل كفر إبليس فإنه لم يجحد أمر الله ولم ينكره، ولكن قابله بالإباء والاستكبار، وكذلك كان كفر كثير من الأمم. فقد حكى الله أقوالهم لرسلهم، حيث كانوا يقولون كما أخبر عنهم سبحانه: (إن أنتم إلا بشر مثلنا)(إبراهيم: 10).

3-كفر الإعراض: بأن يعرض بسمعه وقلبه عن الرسول لا يصدقه ولا يكذبه، ولا يواليه ولا يعاديه، ولا يصغي إليه البتة.

4-كفر الشك: بأن لا يجزم بصدق النبي ولا كذبه بل يشك في أمره.

5-كفر النفاق: وهو أن يظهر بلسانه الإيمان ويطوي بقلبه التكذيب، (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين) (البقرة: 8).فهذه هي أنواع الكفر الأكبر المخرج من الملة[1].

2-: **الكفر الأصغر:** وهو الموجب لاستحقاق الوعيد دون الخلود، ويتناول جميع المعاصي؛ لأنها من خصال الكفر فكما أن الطاعات تسمى إيمانا فكذلك المعاصي تسمى كفراً[2] ولأنها ضد الشكر الذي هو العمل بالطاعة، يقول الله تعالى: (إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفورا) (الإنسان: 3)، ويقول: (فمن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم)(النمل: 40).

وفيما يلي النصوص التي ورد فيها لفظ الكفر مراداً به المعصية مع ذكر بعض ما قاله العلماء في بيان معانيها:

أ-عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله - ρ - قال: (لا ترغبوا عن آبائكم، فمن رغب عن أبيه فهو كفر).[3]

ب-عن أبي ذر رضي الله عنه أنه سمع رسول الله - ρ - يقول: (ليس منا من رجل ادعى لغير أبيه وهو يعلمه إلا كفر)[4].

---

(6) ينظر ابن القيم، مدارج السالكين (1/337 338)

(7) ينظر ما نقله ابن حجر عن ابن العربي، فتح الباري (1/83)

(8) رواه البخاري (8/194) كتاب الفرائض: باب من ادعى إلى غير أبيه، ومسلم (1/80) كتاب الإيمان: باب بيان حال من رغب عن أبيه وهو يعلم.

(9) رواه البخاري (4/219) كتاب المناقب الباب الخامس و (8/18) كتاب الأدب باب ما ينهى عن السباب واللعن، ومسلم (1/79) كتاب الإيمان: باب بيان حال إيمان من رغب عن أبيه وهو يعلم.

قال النووي:(وأما قوله - ρ - فيمن ادعى لغير أبيه كفر، فقيل فيه تأويلان: أحدهما أنه في حق المستحل، والثاني أنه كفر النعمة والإحسان، وحق الله تعالى وحق أبيه، وليس المراد الكفر الذي يخرجه من ملة الإسلام، وهذا كما قال - ρ -: (يكفرن) ثم فسره بكفرانهن الإحسان وكفران العشير).[1]

ج-عن عبد الله بن مسعود أن النبي - ρ - قال:(سباب المسلم فسوق وقتاله كفر)[2]، فالكفر هنا ليس المراد به الكفر المخرج من الملة، بدليل قوله تعالى: (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا)(الحجرات: 10).

قال الإمام البخاري:(فسماهم مؤمنين).وقال ابن حجر:(استدل المؤلف.. على أن المؤمن إذا ارتكب معصية لا يكفر بأن الله تعالى أبقى عليه اسم المؤمن فقال:(وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا) ثم قال:(إنما المؤمنون أخوة فأصلحوا بي أخويكم)، كما استدل أيضا بقوله - ρ -: (إذا التقى المسلمان بسيفيهما)، فسماهما مسلمين مع التوعد بالنار).[3]وقال ابن حجر في شرح حديث (سباب المسلم..): لم يرد حقيقة الكفر التي هي لخروج من الملة، بل أطلق عليه الكفر مبالغة في التحذير).[4]

(10) شرح النووي على صحيح مسلم(50/2) والحديث الذي ذكره سيأتي تخريجه قريباً.

(11) رواه البخاري(18/8) كتاب الأدب: باب ما ينهى عن السباب واللعن، و (63/9) كتاب الفتن باب قول النبي . صلى الله عليه وسلم لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض. ومسلم (81/1) كتاب الإيمان باب قول النبي . صلى الله عليه وسلم . سباب المسلم فسوق وقتاله كفر. والترمذي (353/4) أبواب البر والصلة باب رقم 52، والنسائي (121/7) كتاب تحريم الدم، وأحمد (9385/1، 411، 433، 455)

(12) فتح الباري (85/1)

(13) فتح الباري (113/1)، وينظر كلام شيخ الإسلام عن هذا الحديث إقتضاء الصراط المستقيم (208/2)

د-عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ρ: (اثنتان في الناس هما بهم كفر، الطعن في النسب، والنياحة على الميت)[1].

قال النووي:(وفيه أقوال: أصحها أن معناه هما من أعمال الكفار، وأخلاق الجاهلية، والثاني أنه يؤدي إلى الكفر، والثالث أنه كفر النعمة والإحسان، والرابع أن ذلك في المستحل).[2]وقال شيخ الإسلام (هما بهم كفر): (أي هاتان الخصلتان هما كفر قائم بالناس، فنفس الخصلتين كفر، حيث كانتا من أعمال الكفار، وهما قائمتان بالناس، ولكن ليس كل من قام به شعبة من شعب الكفر يصير كافراً الكفر المطلق حتى تقوم به حقيقة الكفر كما أنه ليس كل من قام به شعبة من شعب الإيمان يصير بها مؤمنا حتى يقوم به أصل الإيمان

وحقيقته وفرق بين الكفر المعرف باللام كما في قوله صلى الله عليه و سلم ليس بين العبد وبين الكفر أو الشرك إلا ترك الصلاة وبين كفر منكر في الإثبات؟).[3]و-

(14) رواه مسلم (82/1) كتاب الإيمان باب إطلاق اسم الكفر على الطعن في النسب والنياحة، وأحمد (496/2)

(15) شرح النووي لصحيح مسلم (57/2)

(16) اقتضاء الصراط المستقيم (207/1 – 208) هذه القاعدة أول من ذكرها هو شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ،فرّق بين الكفر المعرف بأل ،وبين كفر منكر ،فجعل الأول دال على الكفر المخرج من الملة ،وجعل الثاني دال على الكفر الأصغر الذي لا يخرج من الملة ،فالقول السابق الذي ذكرته (وبين كفر مُنَكَّرٍ في الإثبات)يعني

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال النبي - ρ -:(أُريت النار فإذا أكثر أهلها النساء يكفرن، قيل: أيكفرن بالله، قال: يكفرن العشير، ويكفرن الإحسان، لو أحسنت إلى إحداهن الدهر ثم رأت منك شيئاً قالت ما رأيت خيراً قط)[1]، وهذا الحديث فيه التصريح بأن لفظ الكفر يطلق على ما دون الكفر بالله المخرج من الملة، ولذلك بوب عليه الإمام البخاري بقوله: (باب كفران العشير، وكفر دون كفر "[2]. قال ابن العربي: (مراد المصنف أن يبين أن الطاعات كما تسمى إيماناً، كذلك المعاصي تسمى كفراً، لكن حيث يطلق عليها الكفر لا يراد الكفر المخرج من الملة...) [3]. وذكر ابن حجر أن من فوائد هذا الحديث: (جواز إطلاق الكفر على ما لا يخرج من الملة، وتعذيب أهل التوحيد على المعاصي).[4]وقال النووي:(وفيه إطلاق الكفر على غير الكفر بالله تعالى، ككفر العشير والإحسان والنعمة والحق، ويؤخذ من ذلك صحة تأويل الأحاديث لمتقدمة).[5]

وهو بهذا يقصد الأحاديث التي رواها مسلم، مما ورد فيه لفظ الكفر مراداً به ما لا يخرج من الملة. ومما يدل على هذا الأصل العظيم – وهو التفريق بين الكفر الأكبر والكفر الأصغر الذي تندفع به كثير من شبه المكفرين – قول الله عز وجل: (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء "(النساء: 48)، وحديث

:أن الكفر إذا كان نكرة بدون أل وهو في سياق الإثبات لا النفي ،فإنه يراد به الكفر الأصغر الذي لا يخرج من الملة ،وعليه فإن الطعن في الأنساب والنياحة على الميت كفر أصغر ،وليس كفرا أكبر مخرجا من الملة ،فهو كبيرة من الكبائر، وأطلق عليه لفظ الكفر زيادة في التنفير منه ،والتنبيه على فظاعته وبشاعته

(17) رواه البخاري (14/1)كتاب الإيمان باب كفران العشير، وكفر دون كفر، ومختصرا (45/1) صلاة الكسوف باب صلاة الكسوف جماعة وأحمد مطولاً (358/1 – 359)

(18) فتح الباري (83/1)

(19) نقلاً عن ابن حجر، فتح الباري (83/1)

(20) فتح الباري (542/2 – 543)

(21) شرح النووي على صحيح مسلم (67/2)

الشفاعة وأنه يخرج من النار أهل التوحيد. [1]وقد بوب الإمام البخاري بابا فقال: " باب المعاصي من أمر الجاهلية، ولا يكفر صاحبها بارتكابها إلا بالشرك، لقول النبي - ρ -: (إنك امرؤ فيك جاهلية)[2] وقول الله تعالى: (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء)[3]، ومحصل هذه الترجمة أنه لما بين في أبواب سابقة لهذا أن المعاصي يطلق عليها الكفر، أراد هنا أن يبين أنه كفر لا يخرج من الملة، خلافاً للخوارج.[4]و(مثل الكفر: الظلم، والفسوق، والجهل، فإنها تنقسم إلى ما ينقل عن الملة، وما لا ينقل عنها).[5] وهذا التفصيل هو قول الصحابة، الذين هم أعلم الأمة بكتاب الله وبالسلام والكفر ولوازمهما، فلا تتلقى هذه المسائل إلا عنهم، فإن المتأخرين لم يفهموا مرادهم فانقسموا فريقين: فريق أخرجوا من الملة بالكبائر، وقضوا على أصحابها بالخلود في النار، وفريق جعلوهم مؤمنين كاملي الإيمان، فهؤلاء غلوا وهؤلاء جفوا، وهدى الله أهل السنة للطريقة المثلى والقول الوسط الذي هو في المذاهب كالإسلام في الملل، فها هنا كفر دون كفر، ونفاق دون نفاق، وشرك دون شرك، وفسوق دون فسوق، وظلم دون ظلم)[6].

ثالثا: ضوابط التكفير من خلال السنة النبوية

مقدمة: إن لكل دين حدوده من تجاوزها عدّ خارجًا عن الدين معرضًا عن شرائعه مستوجبًا للعقوبة، والقرآن الكريم عبر عن أحكامه بالحدود فقال: (تلك حدود

---

(22) رواه البخاري (179/9)

(23) رواه البخاري (14/1) كتاب الإيمان، باب المعاصي من أمر الجاهلية ومسلم (1282/3) كتاب الإيمان، باب، اطعام المملوك مما يأكل.

(24) فتح الباري ((84/1)

(25) ينظر ابن حجر، فتح الباري (84/1)

(26) ينظر ابن القيم " مدارج السالكين (335/1 – 365) وكتاب الصلاة (55 – 60)

(27) ابن القيم، كتاب الصلاة (56 – 57)

الله فلا تقربوها) (البقرة: آية 187) وقال الله تعالى:(تلك حدود الله فلا تعتدوها) (البقرة: 229) وأهل السنة والجماعة بمنهجهم الذي يقوم على الحق والعدل وإنصاف المخالف يقفون موقف الوسط بين منهجي الإفراط والتفريط، فهناك من يغالي في التكفير ويحكم به على من لا يستحقه شرعًا، وهناك من يريد أن يجعل من الإسلام مائعًا ليس له حدود ولا ضوابط بدعوى سماحته ويسره، فكان لا بدّ من منهج ضابط لهذه المسألة يكون متوافقًا مع نصوص الكتاب والسنة وفهم السلف وعلماء الأمة المشهود لهم بالصدق والإمامة والفقه في الدين؛ لأن هذه المسألة من الخطورة بمكان إذ تستباح فيها الدماء وتنزع فيها الحقوق؛ وقد زادت الحاجة في زماننا لهذا الموضوع بسبب بروز تيارات غالية في الأمة تسلك مسلك التكفير بغير علم ولا ضبط، فكثر المظلومون وشُوهت صورةُ الإسلام الصّافية النّقية، وصار يفتي في هذه المسألة حدثاء الأسنان سفهاء الأحلام جهلاء المعرفة، فكان لابدّ من تأصيل شرعي لهذه المسألة يبين خطورتها وأحكامها وضوابطها، من خلال ما يأتي:

أولا: التعريف بالتكفيروخطورته.

01- تعريف التكفير:هو: الحكم بالكفر، قال الغزالي: التكفير حكم شرعي كالرق والحرية[1].

02- خطورة التكفير :إن التساهل في الحكم بالتكفير خروج عن منهج الله ولا نتيجة لهذا الخروج إلا الفرقة والشقاء واقتتال الإخوة وضعفهم وتسلط عدوهم عليهم، فالحكم على مسلم بالكفر بمثابة قتله، كما أخبرنا بذلك النبي صلى الله

[1] فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة للغزالي (ص128).

عليه وسلم بقوله: ((ومن رمى مؤمنًا بكفر فهو كقتله))[1].لذا لا يصار إليه بالتشهي والهوى والظن، وقد حذر النبي صلى الله عليه وسلم من الوقوع فيه حتى قال: ((إذا قال الرجل لأخيه المؤمن يا كافر فقد باء بها أحدهما، فإن كان كما قال أو رجعت عليه))[2].أي: رجعت عليه معصية تكفيره، فالراجع التكفير لا الكفر كما ذكر أكثر المحققين كالنووي والقرطبي وابن حجر[3].وإدراكًا من العلماء لخطورة التكفير فقد أعملوا فيه قاعدة (الخطأ في العفو خير من الخطأ في العقوبة) يقول الإمام أبو حامد الغزالي رحمه الله: (وينبغي الاحتراز من التكفير ما وجد الإنسان إلى ذلك سبيلا، فإن استباحة الدماء والأموال من المصلين إلى القبلة المصرحين بقول (لا إله إلا الله محمد رسول الله) خطأٌ ، والخطأ في ترك ألف كافر في الحياة أهون من سفك محجمة من دم مسلم)[4].كما أن الحكم به تترتب عليه الكثير من الأحكام الشرعية، كقطع الموالاة والتفريق بين الزوجين ومنع التوارث وإباحة الدم وغير ذلك، لهذا تورع علماء السنة في كل العصور عن الحكم بكفر مسلم إلا في حالات قليلة ممن تطاولت أعناقهم على الدين ولم يتركوا للإيمان في أعناقهم شيئا.ولعل التكفير بلا دليل معتبر هو إحدى ملامح الخوارج البارزة والتي نتجت عن الجهل بأحكام الدين وقواعده ومقاصده وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم عن هؤلاء

[1] صحيح البخاري، باب من أكفر أخاه بغير تأويل فهو كما قال، رقم (5754)، تحقيق البغا، طبعة دار ابن كثير 1987.

[2] متفق عليه عن ابن عمر رضي الله عنه، أخرجه البخاري في باب من أكفر أخاه بغير تأويل فهو كما قال، رقم (5753).

[3] فتح الباري (ص466/10).

[4] الاقتصاد في الاعتقاد للغزالي (ص135).

الخارجين عن الجادة بقوله ((يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم))[1].وفي رواية ((يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لاَ يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ يَمْرُقُونَ مِنَ الإِسْلاَمِ مُرُوقَ السَّهْمِ مِنَ الرَّمِيَّةِ يَقْتُلُونَ أَهْلَ الإِسْلاَمِ وَيَدَعُونَ أَهْلَ الأَوْثَانِ))[2].فالمذهب العدل الوسط هو تكفير من يستحق التكفير بالأدلة المعتبرة مع الاحتياط وعدم تكفير من لا يستحقه من المسلمين.

ثانيا: أهم القواعد والضوابط المعتبرة في مسألة التكفير، وذلك من خلال مجموعة قواعد نص عليها علماء السنة في مواضع مختلفة من مباحث العقائد أو الأحكام.

القاعدة الأولى: (لا نكفر إلا من كفره الله ورسوله ρ)

فمن جاءت النصوص بكفره فهو كافر، ومن لم يكفره الله ورسوله فلا يكفَّر... وعلى هذا فأهل السنة لا يكفّرون من يكفرهم من غيرهم لمجرد أنّ الآخر قد كفرهم، لأن التكفير حكم شرعي ليس داخلًا في باب العقوبة بالمثل، فالتكفير حق الله، لذا لم يكفِّر الصحابة الخوارج مع أن الخوارج كفروا عليًّا رضي الله عنه ومن معه من الصحابة، فالمعوّل عليه في مسألة التكفير النص الصريح أو الإجماع أو القياس الجلي الصحيح على منصوص عليه[3].

القاعدة الثانية : الفرق بين الكفر الأكبر والكفر الأصغر: ليس كل ما وردت النصوص بتسميته كفرًا أو شركًا فهو عمل مُكَفِّرٌ مخرج من الملة... إذ إن بعض

[1] متفق عليه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أخرجه البخاري في باب قتل الخوارج والملحدين بعد إقامة الحجة عليهم، رقم (6532).

[2] متفق عليه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه كما سبق، وقوله (يقتلون أهل الإسلام...) رواها النسائي والحاكم وغيرهما.

[3] فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة للغزالي (ص 128).

الأعمال ورد وصفها بذلك لمشابهتها أفعال الكفار أو باعتبار ما تؤدي إليه أو لأسباب أخرى... ومن هنا قسم بعض العلماء الكفر إلى قسمين: كفر أكبر وهو المخرج من الملة، وكفر أصغر وضابطه: ما وردت النصوص بتسميته كفرًا أو شركًا، واتفق العلماء على أنه لا يخرج مرتكبه من الملة إلا بالاستحلال، ولبيان هذه القاعدة لا بد من الحديث عن عدة مسائل.

- إن هذا التقسيم الذي مر في الكفر يكون في الشرك والنفاق والظلم والفسق أيضًا، فمنها ما هو أصغر ومنها ما هو أكبر... وهذا التقسيم منه ما صرحت به النصوص ومنه ما هو مفهوم من قواعد تفسير النصوص، وقد جاء في الأحاديث ذكر الشرك الأصغر كما في قوله عليه الصلاة والسلام: ((إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر، قالوا: يا رسول الله وما الشرك الأصغر؟ قال: الرياء))[1].وهذا النوع لا يخرج من الملة ولا ينفي عن صاحبه أصل الإسلام ولكن ينافي كماله لكونه من الكبائر، ولا يغفر لمرتكبه إلا بالتوبة ومن مات ولم يتب فهو تحت مشيئة الله تعالى إن شاء عاقبه أو غفر له.

-مما يتفرع على هذه القاعدة عدم تكفير أهل القبلة بمطلق الذنوب أو بما وصف من الذنوب بالكفر أو الشرك إلا بجحود الأمر أو استحلال المحرّم، فقد أجمع الصحابة والتابعون ومن بعدهم على أن المعاصي من أمور الجاهلية ولا يكفر صاحبها بارتكابها إلا بالشرك، بوّب البخاري (باب المعاصي من أمر الجاهلية)[2]

[1] رواه الإمام أحمد بسند صحيح عن محمود بن لبيد رقم (23630) طبعة دار الرسالة، ورواه الحاكم في المستدرك عن شداد بن أوس وقال صحيح على شرطهما ولم يخرجاه، رقم (7937) تحقيق العطا طبعة دار الكتب العلمية.

[2] فتح الباري (ص84/1).

وأورد حديث: ((إنك امرؤ فيك جاهلية))[1].وقد فرق القرآن بين الشرك وسائر المعاصي، وجاء في أحاديث الشفاعة حديث: ((شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي))[2]،يقول ابن تيمية: (إنه قد تقرر من مذهب أهل السنة والجماعة ما دل عليه الكتاب والسنة أنهم لا يكفرون أحدًا من أهل القبلة بذنب ولا يخرجونه من الإسلام بعمل إذا كان فعلًا منهيًّا عنه مثل الزنا والسرقة وشرب الخمر ما لم يتضمن ترك الإيمان... وقد ثبت في الصحيحين حديث أبي ذر : ((من قال لا إله إلا الله دخل الجنة وإن زنا وإن سرق وإن شرب الخمر رغم أنف أبي ذر))[3].

- للعلماء في تأويل النصوص التي صرحت بتكفير مرتكبي بعض الذنوب مذاهب عدة:

- الأول: المراد أنها من أعمال أهل الكفر كما في الحديث: ((لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض))[4]،وحديث: ((سباب المسلم فسوق وقتاله كفر))[5].وقد قال الله تعالى في حق المسلمين المتقاتلين: {وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا} [سورة الحجرات: آية 9] فلم ينف عنهم وصف الإيمان مع اقتتالهم.

---

[1] أخرجه البخاري عن المعرور بن سويد رضي الله عنه، رقم (30).

[2] رواه أبو داود باب في الشفاعة رقم (4739)، والترمذي باب شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي رقم (2623)، وابن ماجه في باب ذكر الشفاعة (4310).

[3] مجموع الفتاوى لابن تيمية (ص90/20).

[4] رواه البخاري في باب حجة الوداع، رقم (4143)، ومسلم في باب بيان معنى قول النبي صلى اله عليه وسلم لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض رقم (118- 65).

[5] رواه البخاري في باب ما ينهى من السباب واللعن رقم (5697)، ورواه مسلم في باب بيان قول النبي صلى الله عليه و سلم سباب المسلم فسوق وقتاله كفر، رقم (116-64).

- الثاني: الكفر أو الشرك المذكور في الحديث هو في حق المستحل.

- الثالث: هذا الفعل يؤدي إلى الكفر أو الشرك: ((من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك))[1].

- الرابع: هو بمعنى كفر الإحسان والنعمة، وهو ما يعبر عنه بعبارة: (كفر دون كفر) كقوله تعالى: {ضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله} [سورة النحل: آية 112].

- الخامس: المقصود نفي كمال الإيمان مع بقاء أصله فلا يكون بذلك العاصي خارجًا من الملة، كقوله عليه الصلاة والسلام: ((لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن))[2] قال ابن حجر في تعليقه على هذا الحديث: (وهذا يوافق قول الجمهور إن المراد بالإيمان هنا كماله لا أصله)[3].

- السادس: إن المقصود به هو التغليظ والزجر ، وليس الكفر، ويتفرع على هذه القاعدة الحديث عن (الكفر الاعتقادي) وهو الكفر الأكبر، (والكفر العملي) وهو الكفر الأصغر... ولعل من أشهر المسائل التي حصل الخلط فيها بين الكفر الاعتقادي والكفر العملي مسألة نقض الإيمان بموالاة الكفار! فهل مطلق موالاة المسلم للكفار يخرجه من الملة باعتباره كفرًا أكبر؟ أم أن فيه تفصيلا؟ لقد نهى الله سبحانه عن موالاة الكفار فقال: {يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء} [سورة الممتحنة: آية 1] وقال: {ومن يتولهم منكم فإنه منهم} [سورة المائدة:

---

[1] أخرجه ابن حبان في صحيحه عن ابن عمر رضي الله عنه، وفي مسند أحمد وسنن أبي داود والترمذي ، وصححه الحاكم في مستدركه على شرطهما.

[2] متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه، رواه البخاري في باب النهبى بغير إذن صاحبه، رقم (2343)، ومسلم في باب بيان نقصان الإيمان بالمعاصي رقم (100-57).

[3] فتح الباري (ص115/12)

آية 51]، وقد فهم البعض من ظاهر هذه النصوص تكفير كل من عمل عملا يفسر على أنه موالاة للكفار، وليس الأمر كذلك إذ جاء في السنة تفصيل هذه المسألة بما لا يدع للشبهة مجالا!، جاء في قصة حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه يوم الفتح أنه أرسل كتابًا يخبر أهل مكة بمسير الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين إليهم، وهذا من الموالاة الظاهرة، لكن الموالاة منه لهم لم تكن بسبب اعتقاده ما هم عليه من الكفر، إنما حماية لأهله كما جاء في الحديث الصحيح فقد قال حاطب: (والله ما فعلته شكًّا في ديني ولا رضًا بالكفر بعد الإسلام) فقال عليه الصلاة والسلام : ((إنه قد صدق))[1] ، وأما منع قتله فكان بسبب شهوده بدرًا فلو حكم بكفره فشهوده بدرًا لا يمنع من إطلاق الكفر عليه وكذلك لو حكم بكفره لحبط عمله ومن جملة ذلك جهاده وشهوده بدرًا قال تعالى: {ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله} [سورة المائدة: آية 5] فلم يعد ينفعه عمله شيئًا، فلما لم يكن ما فعله كفرًا كانت حسنة شهوده بدرا ماحية لهذه السيئة،قال ابن تيمية في الفتاوى: (وقد تحصلُ للرّجل موادَّتهم لرحمٍ أو حاجةٍ فتكون ذنبًا ينقص به إيمانُه، ولا يكون به كافرًا كما حصل مِن حاطب بن أبي بلتعة لما كاتب المشركين ببعض أخبار النبي صلى الله عليه وسلم وأنزل الله فيه {يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِياءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ} [سورة الممتحنة: آية 1]) .ومن المسائل: الحاكم الذي يوصف بأنه مسلم ثم يرفض شريعة الله **ويعتقد** بأن غيرها أفضل منها وأجدر بالتطبيق وأنها غير صالحة للعمل بها ولا شبهة له في ذلك فهذا كافر وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم، قال تعالى: {فلا وربك لا يؤمنون حتى

[1] القصة موجودة في صحيح البخاري وفي كل كتب السيرة وبهذا اللفظ في السنن الكبرى للبيهقي وفي شرح السنة للبغوي.

يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجًا مما قضيت ويسلموا تسليما} [سورة النساء: آية 65]... ولكنه إن كان **يعتقد أحقيتها** ويؤمن بها ولكنه لا يعمل بمقتضاها تقصيرًا أو لوضع ما يمنعه من ذلك؛ فهذا يكون عاصيًا أو ظالمًا مرتكبًا للكبيرة أو فاسقًا ولا يدخل تحت مسمى الكفر الاعتقادي الأكبر، قال شارح الطحاوية : (وهنا أمر يجب أن يتفطن له وهو أن الحكم بغير ما أنزل الله قد يكون كفرًا ينقل عن الملة، وقد يكون معصية كبيرة أو صغيرة، ويكون كفرًا إما مجازيًّا وإما كفرًا أصغر على القولين المذكورين، وذلك بحسب حال الحاكم، فإنه إن اعتقد أن الحكم بما أنزل الله غير واجب وأنه مخير فيه أو استهان به مع تيقنه أنه حكم الله فهذا كفر أكبر، وإن اعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله وعلمه في هذه الواقعة وعدل عنه مع اعترافه بأنه مستحق للعقوبة فهذا عاص ويسمى كافرًا كفرًا مجازيًّا أو كفرًا أصغر، وإن جهل حكم الله فيها مع بذل جهده واستفراغ وسعه في معرفة الحكم وأخطأ فهذا مخطئ له أجر على اجتهاده وخطؤه مغفور)[1].

القاعدة الثالثة : (التفريق بين التكفير المطلق "الأوصاف" أو "تكفير الفعل" والتكفير المعين "الأشخاص" أو "تكفير الفاعل") وضوابط كل منهما :

- تكفير الأوصاف يحتاج إلى دليل وتكفير المعين يحتاج إلى تحقيق مناط (اجتماع شروط وانتفاء موانع).

- التفصيل في التكفير المطلق والتضييق في تكفير الأعيان فلا يطلب في ذلك الاستقصاء.

- تكفير الأوصاف من اختصاص العلماء والفقهاء وتكفير الأشخاص من مسؤولية الأئمة والقضاة لا عامة الناس والوعاظ.

[1] شرح العقيدة الطحاوية (ص446/2).

وينبغي التنبيه ، أنه لا تلازم بين التكفير المطلق وتكفير المعين : ومثاله قول الإمام أحمد بكفر من قال بخلق القرآن، لكنه لم يكفّر أعيانهم مع أنه ناظر بعضهم، وذلك لعدم اجتماع الشروط وانتفاء الموانع، وهؤلاء لم يكذبوا النصوص وإنما أخطؤوا في فهمها وتأويلها، فقد كان الإمام أحمد يصلي خلف الخليفة الذي كان يمتحن الناس بهذه المسألة وكان يدعو الله له بالمغفرة.

القاعدة الرابعة: من عرف إيمانه بيقين فلا يحكم بكفره إلا بيقين، ويترتب على ذلك:

- ثبوت عقد الإيمان لكل من أقر بالشهادتين حتى يتلبس بناقض جلي من نواقض الإيمان، إذ يكفي من لم يكن مؤمنًا الإقرار المجمل بالشهادتين ليعصم دمه وماله، وأدلة ذلك كثيرة منها حديث أسامة بن زيد (بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الحرَقة من جهينة فصبحنا القوم فهزمناهم، ولحقت أنا ورجلٌ من الأنصار رجلاً منهم، فلما غشيناه قال : لا إله إلا الله، فكف عنه الأنصاري وطعنته برمحي حتى قتلته، قال: فلما قدمنا بلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال لي : ((يا أسامة أقتلته بعدما قال لا إله إلا الله؟)) قال: قلت يا رسول الله إنما كان متعوذًا! قال: ((أقتلته بعدما قال لا إله إلا الله؟)) قال: قلت يا رسول الله إنما كان متعوذًا، قال: ((أقتلته بعدما قال لا إله إلا الله؟)) فما زال يكررها حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم)[1]، يقول ابن رجب: (من المعلوم بالضرورة أنّ النبي صلى

[1] متفق عليه عن أسامة بن زيد رضي الله عنه، رواه البخاري باب قول الله تعالى { ومن أحياها } رقم (6478)، ومسلم باب تحريم قتل الكافر بعد أن قال لا إله إلا الله، رقم (159-96).

الله عليه وسلم كان يقبل كل من جاءه يريد الدخول في الإسلام بالشهادتين فقط، ويعصم دمه بذلك ويجعله مسلمًا، فقد أنكر على أسامة بن زيد قتله لمن قال لا إله إلا الله لمّا رفع عليه السيف واشتد نكيره عليه، ولم يكن صلى الله عليه وسلم ليشترط على من جاءه يريد الإسلام)[1] ، وهذا قصد كل من قال من السلف أن الإقرار بالإسلام يكفيه لثبوت وصف الإسلام له.

- كل من له لوثة أو شبهة على الإقرار المجمل فلا بد أن يقر بالحق ويتبرأ من كل ما خالفه ، يقول النووي: (أما إذا أتى بالشهادتين فلا يشترط معهما أن يقول وأنا بريء من كل ما خالف دين الإسلام إلا إذا كان من الكفار الذين يعتقدون اختصاص رسالة نبينا صلى الله عليه وسلم بالعرب فإنه لا يحكم بإسلامه حتى يتبرأ)[2].

- المسلم الذي نجهل حاله يكفي في معرفتنا إسلامه أي دلالة على ذلك كمن يصلي أو يصوم، وعليه يحمل حديث النبي صلى الله عليه وسلم ((من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم الذي له ذمة الله ورسوله))[3] يقول ابن حجر في تعليقه على هذا الحديث: (وفيه أن أمور الناس محمولة على الظاهر، فمن أظهر شعائر الدين أجريت عليه أحكام أهله ما لم يظهر منه خلاف ذلك)[4] ، وعلى هذا فليس من الهدي النبوي امتحان الناس لمعرفة إيمانهم طالما أنهم يعيشون بين المسلمين ويظهرون لنا ما يدل على إسلامهم، وامتحان الإيمان كان في

---

[1] جامع العلوم والحكم لابن رجب (ص228).

[2] صحيح مسلم بشرح النووي (ص149/1).

[3] أخرجه البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه، باب فضل استقبال القبلة رقم (384) ومسلم باب وقتها -أي الأضحية- رقم (6-1961).

[4] فتح الباري لابن حجر (ص 496/1).

حالات خاصة أمر الله تعالى بها كامتحان المرأة المهاجرة وذلك لمصلحة الوفاء بالعهد الذي أبرم في صلح الحديبية، وكذلك عند الريبة لتنزيل حكم شرعي كما في قصة عتق الجارية.

- لا يلزم من القول بجاهليةِ المجتمعات جاهليَّةُ كل الأفراد، فالمجتمعات مركبة من أفراد وجماعات ومناط الحكم على المجتمعات غير مناطه على الأفراد، وكذلك لم يقل أحد من أهل العلم أن الحكم على دار بأنها دار كفر يلزم منه كفر كل ساكنيها، وعلى هذا فالأصل في الناس في بلاد المسلمين الإسلام، والحكم بالكفر هو خلاف الأصل فيحتاج إلى دليل واجتماع شروط وانتفاء موانع في حق المعيّن.

- وعلى هذا لو صدر قول أو فعل محتملٌ للكفر وعدمه، فلا بدّ من الاستفصال في الحامل على ذلك لأن وجود الاحتمال يمنع من القطع كما في حديث سجود معاذ رضي الله عنه للنبي عليه الصلاة والسلام بعد مقدم معاذ من الشام، فلما سأله النبي عليه الصلاة والسلام عن سبب ذلك؛ ذكر له رؤيته الناس في الشام يسجدون لأساقفتهم ورأى أنه عليه الصلاة والسلام أولى بالسجود منهم، فقال له عليه الصلاة والسلام : ((لا تفعل)) فمن الواضح أن سجود معاذ كان من باب التعظيم والاحترام وليس من قبيل العبادة يقينًا، فقد كان سجود الاحترام والتعظيم جائزًا في الأمم السابقة كما في سجود أبوَي يوسف وإخوته له، قال تعالى: { وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا} [سورة يوسف: الآية 100] وعلى هذا فسجود التعظيم يحكم على فاعله بأنه ارتكب حرامًا للنهي عنه ولا يحكم عليه بالكفر خلافًا لسجود العبادة، فالأمر من حيث الظاهر يحتمل الأمرين، وعلى هذا فمجرد السجود لا يستلزم الحكم على فاعله بأنه قصد العبادة فلا بدّ من الاستفصال، يقول ابن تيمية: (فكيف يقال يلزم من السجود لشيء عبادته !!

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((لو كنت آمراً أحدًا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها لعظم حقه عليها))[1] ومعلوم أنه لم يقل: لو كنت آمرًا أحدًا أن يعبد...)[2].

القاعدة الخامسة: لا يكفر في مسائل الخلاف المعتبر في أصول العقائد أو الفقه.

يقول ابن تيمية بعد عرضه الخلاف في بعض **مسائل التوسل** (فالمكفر في مثل هذه الأمور يستحق من غليظ العقوبة والتعزير ما يستحقه أمثاله من المفترين على الدين)[3].

ولعل من أشهر المسائل التي تندرج تحت هذه القاعدة مسألة تارك الصلاة هل هو كافر أم لا؟ لحديث النبي صلى الله عليه وسلم: (بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة)[4] ، وقوله عليه الصلاة والسلام: (العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر)[5] ، حيث ذهب الجمهور إلى عدم كفره ما لم يجحد وجوب الصلاة وخالفهم الحنابلة فحكموا على تارك الصلاة بظاهر الحديث... فإن هذه المسألة من القضايا الخلافية ومهما قيل في أدلة هذه الأقوال فسوف يبقى الخلاف فيها معتبرًا، فهل يجري التكفير فيها؟ الذي أراه أن الحكم بالتكفير فيها وما يلزم عنه

---

[1] تتمة حديث سجود معاذ للنبي عليه الصلاة والسلام وهو في مسند الإمام أحمد وسنن ابن ماجة والبيهقي وصحيح ابن حبان عن عبدالله بن أبي أوفي وهو صحيح

[2] مجموع الفتاوى (ص360/4).

[3] مجموع الفتاوى لابن تيمية (ص106/1).

[4] أخرجه مسلم عن جابر رضي الله عنه، باب بيان إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة، رقم (134 – 82).

[5] صحيح ابن حبان - كتاب الصلاة - باب الوعيد على ترك الصلاة - ذكر لفظة أوهمت غير المتبحر في صناعة الحديث أن تارك الصلاة حتى خرج وقتها كافر بالله جل وعلا، ح 1454، ج 04، ص 305

من أحكام لا يقع؛ لأنه لا يكفر بمسائل الخلاف بناء على أصل القاعدة، وعملاً بقاعدة من ثبت إيمانه بيقين لا يخرج عنه إلا بيقين، ومسائل الخلاف لا يقين فيها.

القاعدة السادسة: معاملة الناس على الظاهر والله يتولى السرائر.

إن أحكام الشريعة تجري على حسب الأعمال الظاهرة للناس وليس على ما يبطنونه، وهذا ما شرعه النبي صلى الله عليه وسلم لأمته من خلال طريقة تعامله مع المنافقين مع علمه اليقيني بنفاقهم الكفري، قال الله تعالى عنهم: (يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ) (التوبة: 74)... ومع ذلك كان عليه الصلاة والسلام يجري عليهم أحكام المسلمين من حيث الأنكحة والميراث والجنائز ولولا النهي لبقي يستغفر لهم، وهذا ما نص عليه الإمام الشافعي رحمه الله[1]، يقول الشاطبي: (ومن هنا جعلت الأعمال الظاهرة في الشرع دليلاً على ما في الباطن، فإن كان الظاهر منحرفًا حكم على الباطن بذلك، أو مستقيمًا حكم على الباطن بذلك أيضًا، وهو أصل عام في الفقه وسائر الأحكام العاديّات والتجريبيات، بل هو كلية التشريع وعمدة التكليف بالنسبة إلى إقامة حدود الشعائر الإسلامية الخاصة والعامة)[2].

[1] الأم للشافعي (ص296/1).

[2] الموافقات للشاطبي (ص233/1).

القاعدة السابعة: ليس هناك تلازم بين المقاتلة والحكم بالكفر. ومراعاة الموانع في التكفير..

ويدخل تحت هذه القاعدة مجموعة من المسائل المشهورة منها قتال أهل البغي وقتل الزنادقة وقتال مانعي الزكاة.

قتال مانعي الزكاة:

قتال مانعي الزكاة في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه لا يستدل به على كفر تارك الواجب، إذ أن تركها لم يكن عن جحود لها ولكن لأنهم تأولوها بأنها كانت خاصة بزمن النبي صلى الله عليه وسلم، وهؤلاء هم الذين اختلف الصحابة في قتالهم ابتداءً... وجمهور العلماء لم يحكموا بكفرهم كالنووي والخطابي وابن حجر وابن قدامة والشوكاني[1] ولم يجعلوا تلازمًا بين التكفير والمقاتلة، وأطلق عليهم لقب مرتدين من قبيل التغليب والمجاز كما جزم بذلك ابن حجر في فتح الباري، ويقول الخطابي: (هم أهل بغي وإن لم يدعوا بهذا الاسم ذلك الزمان لدخولهم في غمرة المرتدين، وأول ما أُرّخ لقتال البغاة زمن علي).

قتل أحد الخليفتين:

يقول النبي صلى الله عليه وسلم: ((إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما))[2] فإن هذا لا يلزم منه الحكم بكفر الثاني.

[1] شرح النووي لصحيح مسلم (ص203/1) وما بعدها، فتح الباري (ص277/12)، المغني لابن قدامة (ص434/2)، ونيل الأوطار (ص127/4).

[2] أخرجه مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، باب إذا بويع لخليفتين، رقم (61-1853).

قتال علي للخوارج:

وقد قاتل علي رضي الله عنه الخوارج وقاتلوه ومع هذا فإنه لم يحكم عليهم بالكفر، (ولما سئل عنهم أكفارٌ هم؟ قال: ((من الكفر فرُّوا)) وقال عنهم: ((إخواننا بغَوا علينا))[1].

ومثل ذلك في الحكم ما وقع من قتال بين الصحابة رضوان الله عليهم، فقد كانوا متأوِّلين فيه ولم يكفّر بعضهم بعضًا، بل قال القرآن الكريم: (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا) (الحجرات: 9) فلم يسلب عنهم وصف الإيمان مع وقوع الاقتتال بينهم، وعلى هذا يحمل كلام الشافعي كما نقله ابن حجر: (ليس القتال من القتل بسبيل، قد يحل قتال الرجل ولا يحل قتله)[2].

مراعاة الموانع.

- ومن هذه الموانع الجهل:فإنه عارض معتبر عند إجراء الأحكام، فلا يحكم على جاهل بالكفر ولا غيره فيما جهله، وله أشكال عدة:

- الجهل في بعض العقائد :كسجود معاذ للنبي عليه الصلاة والسلام بعد مجيئه من الشام ولم يكن يعلم الحكم كما سبق بيانه، وجهل بعض الصحابة برؤية الله يوم القيامة، وجهل عائشة أن الله قد أحاط بكل شيء علمًا حتى ما يكتمه الناس فقد سألَت النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك؛

[1] مصنف ابن أبي شيبة باب مسير عائشة وعلي وطلحة والزبير رضي الله عنهم رقم (38918)، وسنن البيهقي الكبرى عن أبي البختري، باب الدليل على أن الفئة الباغية منهما لا تخرج بالبغي عن تسمية الإسلام، رقم (16490).

[2] فتح الباري (ص76/1).

فبين لها وكان مما قال: ((أتخافين أن يحيف الله عليك ورسوله))[1] ، وكجهل مُسلمةِ الفتح عند مرورهم في غزوة حنين على ذات أنواط فقالوا: (اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط فقال لهم: ((لقد قلتم كما قال بنو إسرائيل لموسى...)[2].

الجهل في مسائل الصفات :

وذلك كجهل بعض الحواريين بقدرة الله تعالى عندما قالوا لعيسى بن مريم: (هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) (المائدة: 112) فلم يكفرهم لجهلهم بكمال قدرته سبحانه وتعالى... قال الإمام الشافعي رحمه الله: (لله أسماء وصفات لا يسع أحدًا ردُّها، ومن خالف بعد ثبوت الحجة عليه فقد كفر، وأما قبل قيام الحجة فإنه يعذر بالجهل، لأن علم ذلك لا يدرك بالعقل، ولا الرؤية والفكر)[3].

ومن الجهل بصفات الله قصة الرجل الذي أوصى أبناءه إذا مات أن يحرقوه ويذروه كما جاء في الحديث: ((أَسْرَفَ رَجُلٌ عَلَى نَفْسِهِ، فَلَمَّا حَضَرَهُ الْمَوْتُ أَوْصَى بَنِيهِ فَقَالَ: إِذَا أَنَا مُتُّ فَأَحْرِقُونِي ثُمَّ اسْحَقُونِي، ثُمَّ اذْرُونِي فِي الرِّيحِ فِي الْبَحْرِ، فَوَاللهِ لَئِنْ قَدَرَ عَلَيَّ رَبِّي لَيُعَذِّبُنِي عَذَابًا مَا عَذَّبَهُ أَحَد، قَالَ: فَفَعَلُوا ذَلِكَ بِهِ،

[1] صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنه، باب ما يقال عند دخول القبر... رقم (103- 974).

[2] أخرجه أحمد رقم (21897) والترمذي وابن حبان عن أبي واقد الليثي رضي الله عنه وهو صحيح.

[3] فتح الباري (ص407/13).

فَقَالَ لِلْأَرْضِ: أَدِّي مَا أَخَذْتِ، فَإِذَا هُوَ قَائِمٌ! فَقَالَ لَهُ: (مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ؟) فَقَالَ: خَشْيَتُكَ، يَا رَبِّ – أَوْ قَالَ مَخَافَتُكَ – فَغَفَرَ لَهُ بِذَلِكَ))[1] فهذا الرجل كان جاهلاً بعموم قدرة الله تعالى فظن أن الله لا يقدر على أن يجمعه إذا صار رمادًا مذريًّا في البحر مع أنه كان مؤمنًا بالمعاد، فعذره الله بجهله في المسألة الأولى، وأثابه على خشيته في الثانية فغفر له.

الجهل في مسائل الأحكام:

ومن أمثلته تلك المرأة النوبية التي أقرت بالزنا على نفسها وبمن زنا بها كما جاء في الأثر: ((زَنَتْ مَوْلَاةٌ يُقَالُ لَهَا مَرْكُوشٌ، فَجَاءَتْ تَسْتَهِلُّ بِالزِّنَا، فَسَأَلَ عَنْهَا عُمَرُ عَلِيًّا وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَوْفٍ! فَقَالَا: «تُحَدُّ» فَسَأَلَ عَنْهَا عُثْمَانَ فَقَالَ: (أُرَاهَا تَسْتَهِلُّ بِهِ كَأَنَّهَا لَا تَعْلَمُ وَإِنَّمَا الْحَدُّ عَلَى مَنْ عَلِمَهُ» فَوَافَقَ عُمَرُ فَضَرَبَهَا وَلَمْ يَرْجُمْهَا)[2].

وتحقيق الأمر أن هذه المسألة مما تتغير به الفتوى زمانًا ومكانًا وحالًا، فما علم من الدين بالضرورة لا عذر بجهله.... من موانع التكفير الإكراه:

يعتبر الإكراه من العوارض المانعة من التكفير وهذا محل اتفاق بين العلماء، ودليله في القرآن قوله تعالى: (مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ) (سورة: 106) وأهل التفسير متفقون على أنها نزلت في عمار بن ياسر لما أكره على مدح آلهة المشركين وسب النبي عليه الصلاة والسلام كما ثبت في حديث المستدرك وغيره.

اعتبارعارض التأويل عند إجراء الأحكام:

[1] متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه، رواه البخاري باب الخوف من الله رقم (6116)، ومسلم في باب سعة رحمة الله... رقم (25-2756).

[2] مسند الشافعي (ص275/3) رقم (1552)، ومصنف عبدالرزاق (ص403/7) رقم (13644) عن يحيى بن حاطب عن أبيه.

إن التأويل من العوارض والموانع المعتبرة عند إجراء الأحكام، ولكن لا بد له من ضابط حتى لا يصير سلَّمًا للباطنية والزنادقة... وقد فرّق العلماء بين من كان تأويله من قبيل رد النصوص والتكذيب بها وبين من كان تأويله للنصوص من قبيل عدم تنزيلها وإجرائها إجراءً صحيحًا،

واعتبارًا للخطأ في التأويل مع قصد الحق عذر المسلمون أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم الذين شاركوا في الفتنة وترضوا عن سائرهم، ولم يوقعوا فيهم النصوص التي ذمت قاتل النفس المؤمنة كقوله عليه الصلاة والسلام: ((لا ترجعوا بعدي كفارًا، يضرب بعضكم رقاب بعض)).ومن المشهور في ذلك استحلال قدامة بن مظعون شرب الخمر تأويلًا لقوله تعالى: (لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) (المائدة: 93) كما ذكر في تفسير الآية، وجاء في الحديث أن عمر بن الخطاب قال له: ((أما إنك لو اتقيت الله لاجتنبت ما حرم الله عليك))، فأمر بجلده حدًّا ولم يحكم بكفره لكونه لم يكن مكذبًا وإنما شربها متأولا حلّها، فقد بيّن له فقهاء الصحابة أن الآية نزلت بعد تحريم الخمر فتحرج بعضهم لأنه كان يشربها قبل التحريم وبعضهم مات وهي في بطنه فأنزل الله الآية لإزالة هذا الحرج بسبب شربها قبل التحريم، فخيّره عمر بين قتله كفرًا بعد بيان الحكم إذا أصرّ أو حد الشرب إن اعترف بخطأ تصرفه.

وقد اعتبر علي رضي الله عنه عارض التأويل في قضية الخوارج، فإن الصحابة لم يحكموا عليهم بالكفر رغم تكفيرهم للأمة وقتالهم لها لأنهم خرجوا متأولين.

عارض الخطأ أو (القصد) معتبر عند إجراء الأحكام :

بأن يكون الخطأُ قَصْدَ الفعلِ لا قَصْدَ الكفرِ، لأنه لا يقصد الكفر مؤمن عمومًا، وذلك كقول الرجل الذي فرح بعودة راحلته: ((اللهم أنت عبدي وأنا ربك)) في حديث التوبة: ((لله أفرح بتوبة عبده من رجل أضل راحلته ...))[1] – وإن كان للعلماء تفصيل في قاعدة (أخذ الأحكام من ضرب الأمثال) – قال ابن القيم: (ومن تدبر مصادر الشرع وموارده تبين له أن الشارع ألغى الألفاظ التي لم يقصد المتكلم بها معانيها، بل جرت على غير قصد منه كالنائم والناسي والسكران والجاهل والمكره والمخطئ من شدة الفرح أو الغضب أو المرض ونحوهم)[2].

ومثل هذا السُّوءِ في القول ما يصدر يوم القيامة من آخر أهل الجنة دخولا إليها، فيقول مخاطبًا ربه جلّ وعلا: ((أتسخر بي أو أتضحك بي وأنت الملك؟ قال: لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ضحك حتى بدت نواجذه))[3].وهذا القول المستقبح لا يخاطَب به الله العظيم لكنه عفي عن قائله لفرط ذهوله، ونقل النووي عن القاضي عياض قوله في معنى الحديث: (هذا الكلام صدر من هذا الرّجل وهو غير ضابط لما قاله لما ناله من السّرور ببلوغ ما لم يخطر بباله, فلم يضبط لسانه دهشًا وفرحًا، فقاله وهو لا يعتقد حقيقة معناه وجرى على عادته في الدّنيا في مخاطبة المخلوق)[4].

---

[1] أخرجه مسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه، باب في الحض على التوبة والفرح بها، رقم (7-2747).

[2] إعلام الموقعين (ص124/3).

[3] متفق عليه عن ابن مسعود، رواه البخاري في باب صفة الجنة والنار رقم (6202) ومسلم باب آخر أهل النار خروجا رقم (308-186).

شرح النووي لصحيح مسلم (ص40/3).

[4] فتاوى السبكي (ص591/2).

كما أنه لم يُكَفَّر الذين خاضوا بالإفك، وآذوا النبي صلى الله عليه وسلم كحسان بن ثابت ومسطح بن أثاثة وحمنة بنت جحش لعدم قصدهم إيذاءه... ومثلهم حال أولئك الأصحاب رضوان الله عليهم الذين أطالوا الجلوس عنده صلى الله عليه وسلم في يوم زواجه، فآذَوه بذلك: {إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ} [سورة الأحزاب: آية 53]، يقول السبكي: (لكن الأذى على قسمين، أحدهما يكون فاعله قاصدًا لأذى النبيّ صلى الله عليه وسلم، ولاشك أن هذا يقتضي القتل، وهذا كأذى عبد الله بن أُبيّ في قصة الإفك، والآخر أن لا يكون فاعله قاصدًا لأذى النبيّ صلى الله عليه وسلم مثل كلام مسطح وحمنة في الإفك ، فهذا لا يقتضي قتلا)..

المحاضرة الرابعة حرمة المسلمين في ضوء السنة النبوية

1-حرمة النفس في السنة النبوية :إن من المعلوم أن شريعة الإسلام جاءت بحفظ الضروريات الخمس وحرمت الاعتداء عليها وهي الدين والنفس والمال

والعرض والعقل.ولا يختلف المسلمون في تحريم الاعتداء على الأنفس المعصومة .فلا يجوز بحال الاعتداء على النفس المسلمة وقتلها بغير حق، ومن فعل ذلك فقد ارتكب كبيرة من كبائر الذنوب العظام,يقول النبي ρ (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله)[1] ,ونظر ابن عمر τ يوما إلى البيت أو إلى الكعبة فقال: (ما أعظمك وأعظم حرمتك، والمؤمن أعظم حرمة عند الله منك) [2] كل هذه الأدلة وغيرها كثير تدل على عظم حرمة دم المرء المسلم، وتحريم قتله لأي سبب من الأسباب إلا ما دلت عليه النصوص الشرعية، فلا يحل لأحد أن يعتدي على مسلم بغير حق. يقول أسامة بن زيد τ: (بعثنا رسول الله ρ إلى الحرقة فصبحنا القوم فهزمناهم ولحقت أنا ورجل من الأنصار رجلا منهم ، فلما غشيناه قال لا إله إلا الله فكف الأنصاري فطعنته برمحي حتى قتلته, فلما قدمنا بلغ النبي ρ فقال يا أسامة:ِ أقتلته بعدما قال لا إله إلا الله؟ قلت:ِ كان متعوذا، فما زال يكررها حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم)[3].وهذا يدل أعظم الدلالة على حرمة الدماء، فهذا رجل مشرك، وهم مجاهدون في ساحة القتال لما ظفروا به، وتمكنوا منه نطق بالتوحيد فتأول أسامة τ قتله على أنه ما قالها إلا ليكفوا عن قتله، ولم يقبل النبي ρ عذره وتأويله، وهذا من أعظم ما يدل على حرمة دماء المسلمين وعظيم جرم من يتعرض لها وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة τ عن النبي ρ من قتل نفسه بحديدة

[1] متفق على، صحيح البخاري - الصفحة أو الرقم :، 2946صحيح مسلم - الصفحة أو الرقم: 21

[2] مجمع الزوائد للهيثمي 86/1

[3] متفق عليه، وهذا لفظ البخاري صحيح البخاري) ، (6872صحيح مسلم)(96

فحديدته في يده يتوجأ بها في بطنه في نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا.ومن شرب سما فقتل نفسه فهو يتحساه في نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبداً. ومن تردى من جبل فقتل نفسه فهو يتردى في نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا)[1] وقد بينت السنَّة النبوية هذا الحق، في مثل ما أخرجه الشيخانِ من حديث عبد الله بن مسعود τ قال: (قال رسول اللهρ (لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: النَّفس بالنَّفس، والثَّيب الزاني، والمارق من الدِّين التارك للجماعة)[2]

2-حرمة الدم و العرض والمال في السنة النبوية:قال رسول الله ρ:(لا تحاسدوا، ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يبِعْ بعضُكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخواناً، المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره؛ التقوى هاهنا – ويشير إلى صدره ثلاث مرات- بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام: دمه وماله وعرضه)[3] لقد حرَّم الإسلام الاعتداء على المسلم في أموره كلها، وذلك يشمل:

أ-حرمة دمه: وهذا يعنى أن دم المسلم على المسلم حرام، ولا يحل دمه إلا بإحدى ثلاث، قال رسول الله ρ: (لا يحل دم امرئٍ مسلم إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة))[4]. والمسلم أعظم عند الله من الدنيا كلها، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لزوال الدنيا أهون على الله من

[1] رواه البخاري ومسلم صحيح البخاري) ، (5778صحيح مسلم) (109)

[2] متفق عليه :ؤالبخاري) ، (6878مسلم)(1676)

[3] رواه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب برقم (4650) عن أبي هريرة.. ورواه أحمد برقم (7402) و الترمذي وأبو داود وابن ماجه

[4] رواه البخاري ومسلم.

قتل رجلٍ مسلم)[1] ونظر ابن عمر إلى الكعبة فقال: (ما أعظمك وما أشد حرمتك، والله للمسلم أشد حرمة عند الله منك)[2].

ب-حرمة عرضه: وذلك يتضمن عدة أمور منها: حرمة الحقد، والحسد، والسب، والقذف، والغيبة، والنميمة وغير ذلك، فهذه كلها مما حرمها الإسلام، وقال رسول الله ρ في الحديث السابق: (كل المسلم على المسلم حرام: دمه وماله وعرضه). والعرض يشمل -أيضاً- حفظ المسلم في أهله، فلا ينتهك عرضه بالوقوع في الحرام كفعل الفاحشة أو موجباتها؛ ولهذا حرم الزنا لما فيه من التعدي على أعراض الغير، مع اختلاط الأنساب، وكذا الأمراض القاتلة المنتشرة اليوم، والتمزق الإنساني المشين.

ج- حرمة ماله: فقد حرم الإسلام سرقة مال المسلم أو غصبه، والتعدي عليه، وأكله بالباطل: كالربا؛ وغير ذلك، كما. فسمى الربا ظلماً؛ لأن فيه ضرراً على المأخوذ منه.. وكذا حرم الإسلام البيع على بيع الغير.. كأن يبع سلعة بسعر كذا، فيأتيه آخر يقول: أبيعك مثلها بأرخص منها، أو يبيع الرجل لآخر سلعة وذلك بالاتفاق بينهما؛ ثم ينقض البيع دون اتفاق، فيبيعها لآخر، وقد سبق في الحديث: (ولا يبع بعضكم على بيع بعض).. وحرم النجش، وهو: رفع ثمن السلعة لا لأجل شرائها؛ ولكن لمخادعة الناس، كما يحصل اليوم عند أصحاب المعارض والمحلات المختلفة.. ولهذا قال ρ: (ولا تناجشوا) , وكذا حرم الغش لما فيه من الخداع وأكل الأموال بالباطل، فقد ثبت أن النبي ρ جاء إلى السوق فوجد رجلاً يبيع طعاماً

[1] رواه الترمذي (1395) والنسائي (3987) وابن ماجه (2619) وهو حديث صحيح، انظر غاية المرام للألباني برقم (439).

[2] رواه الترمذي برقم (2032).

فوضع الرسول يده أسفل الطعام فوجده مبتلاً فقال: (ما هذا يا صاحب الطعام) ؟ قال: أصابته السماء يا رسول الله! قال: (أفلا جعلته فوق الطعام كي يراه الناس؟ من غشَّ فليس مني)[1].. وحرم التدليس وأكل أموال العقارات ومحاولة الزيادة فيها، فقال: (من ظلم قِيد شِبْر من الأرض طُوِّقَه من سبع أَرَضِين)[2], وحرم المماطلة في قضاء الديون؛ إذا كان المدين غنياً، فقال: (مَطْلُ الغنيِّ ظُلْمٌ))[3] ومعناه:أن تأخير الغني سداد الدين لصاحبه ظلم.. وغير ذلك من المحرمات التي لا يجوز بها أكل مال المسلم..ولما خطب رسول الله ρ في حجة الوداع بيَّن هذا الأمر تبييناً جلياً؛ فعن أبي بكرة τ قال: خطبنا رسول الله ρ يوم النحر فقال: (أي يوم هذا ؟) قلنا: الله ورسوله أعلم، حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، فقال: (أليس ذو الحجة ؟) قلنا: بلى، قال: (أتدرون أي بلد هذا ؟) قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: فسكت حتى ظننا أن سيسميه بغير اسمه، فقال: ((أليس بالبلدة ؟)) قلنا: بلى، قال: ((فإنَّ دماءكم وأموالكم حرام، كحرمة

يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، إلى يوم تلقون ربكم، ألا هل بلغت ؟)) قالوا: نعم، قال: (اللهمَّ اشهد، ليبلغ الشاهد الغائب، فرب مبلغٍ أوعى من سامع، ألا فلا ترجعُن بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض)[4].وهذه من آخر الوصايا

[1] رواه مسلم (102). والترمذي (1315) إلا أن عند الترمذي ((... فليس منَّا)) بدل: ((منِّي)).

[2] رواه البخاري (2453) ومسلم (1610).

[3] رواه البخاري (2287) ومسلم (1564).

[4] رواه البخاري برقم (1741) ومسلم (1679).

النبوية الجامعة، من جوامع كلمه التي أوتيها ρ؛ وقد جمعت الحرمات كلها من كبار الأمور وصغارها حرمة الدم والعرض والمال..

3-حرمة أذية المسلم في السنة النبوية:

للمسلم حرمة عظيمة ايا كان مذهبه فلا يحل لاحدٍ قتله اوسفك دمه وانتهاك حرمته لذلك كان الرسول الكريم يشدد على حرمة دم المسلم ، يقول عن النبي (ص) : " لا يحل دم امرئ مسلم الا باحدى ثلاث : كفر بعد اسلامه ، او زنى بعد احصانه او قتل نفساً بنفس "[39] وفي نفس اللفظ عن ام المؤمنين عائشة (رض) قَالَتْ:" قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ إِلَّا بِإِحْدَى ثَلَاثٍ رَجُلٌ زَنَى بَعْدَ إِحْصَانٍ فَإِنَّهُ يُرْجَمُ وَرَجُلٌ خَرَجَ مُحَارِبًا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّهُ يُقْتَلُ أَوْ يُصْلَبُ أَوْ يُنْفَى مِنْ الْأَرْضِ أَوْ يَقْتُلُ نَفْسًا فَيُقْتَلُ بِهَا "[1] [40]وبلغ الامر ان المقداد بن الاسود الكندي ، قال : سألتُ رسول الله : أرايت ان لقيت كافراً فقاتلتهُ فقطع يدي ثم اهويت لاضربهُ فلاذ بشجرة ، فقال : اسلمتُ لله أ أقتلهُ ؟ .قال : " لا " قلتُ يا

رسول الله انه قطع يدي ، أأقتله؟ قال : " لأ "، " لانك ان قتلته كان بمنزلتك قبل ان تقتلهُ ، وكنت بمنزلته قبل ان يقولها "[2] [43].لذلك كان المسلمون يتورعون في الامور التي فيها الحدود لئلا يقع ظلم من جراء مكيدة من احد فجاء التشديد من قبل المشرع الاسلامي فجاء عن عائشة رضي الله عنها : قالت : قال رسول الله (ص) أَدْرَءُوا الْحُدُودَ عَنْ الْمُسْلِمِينَ مَا اسْتَطَعْتُمْ فَإِنْ كَانَ لَهُ مَخْرَجٌ فَخَلُّوا سَبِيلَهُ فَإِنَّ

[1] سنن أبي داود - (ج 11 / ص 430)ح3789; سنن النسائي - (ج 12 / ص 405) ح3980.

[2] المعجم الكبير للطبراني - (ج 15 / ص 185) ح16977 ; صحيح ابن حبان - (ج 20 / ص 15) ح4836 .

الْإِمَامَ أَنْ يُخْطِئَ فِي الْعَفْوِ خَيْرٌ مِنْ أَنْ يُخْطِئَ فِي الْعُقُوبَةِ[1] [44]وورد عن أَبِي هُرَيْرَةَ : أَنَّ سَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ قَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَرَأَيْتَ إِنْ وَجَدْتُ مَعَ امْرَأَتِي رَجُلًا أَأُمْهِلُهُ حَتَّى آتِيَ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (ص) : " نَعَمْ[2] "[45] .

لقد كان الرسول الكريم حريصاً على أرواح المسلمين فقد نهى النبي " ان يشار المسلم الى اخيه المسلم بالسلاح ، فعن أبو هريرة ، قال : وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يشر أحدكم إلى أخيه بالسلاح فإنه لا يدري أحدكم لعل الشيطان أن ينزغ في يده فيقع في حفرة من النار »[3] [47] .وعن أَبَي هُرَيْرَةَ ايضاً :قَالَ أَبُو الْقَاسِمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " مَنْ أَشَارَ إِلَى أَخِيهِ بِحَدِيدَةٍ فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَلْعَنُهُ حَتَّى يَدَعَهُ وَإِنْ كَانَ أَخَاهُ لِأَبِيهِ وَأُمِّهِ "[4][48] . لقد كان الرسول الكريم حريصاً على ان لا يتاذى احد من المسلمين فكان يوصي اصحابه " إِذَا مَرَّ أَحَدُكُمْ فِي مَسْجِدِنَا أَوْ فِي سُوقِنَا وَمَعَهُ نَبْلٌ فَلْيُمْسِكْ عَلَى نِصَالِهَا أَوْ قَالَ فَلْيَقْبِضْ بِكَفِّهِ أَنْ يُصِيبَ أَحَدًا مِنْ الْمُسْلِمِينَ مِنْهَا شَيْءٌ "[5][49] .ونهى رسول الله ان ينظر المسلم الى المسلم بنظرة يخيفه بها المسلم فقال (ص) : من نظر إلى أخيه المسلم نظرة يخيفه بها ، أخافه الله يوم القيامة[6]. ([51] وقال " إِذَا الْتَقَى الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذَا الْقَاتِلُ فَمَا بَالُ الْمَقْتُولِ قَالَ إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ

---

[1] سنن الترمذي - (ج 5 / ص 322)1344 ; سنن الدارقطني - (ج 7 / ص 389) ح3141 .

[2] موطأ مالك - (ج 5 / ص 14) ح 1221 ; صحيح مسلم - (ج 7 / ص 496) ح2753; مسند أحمد - (ج 20 / ص 169) ح 9626.

[3] شعب الإيمان للبيهقي - (ج 11 / ص 319) ح5102 .

[4] صحيح مسلم - (ج 13 / ص 42) ح4741; المعجم الكبير للطبراني - (ج 19 / ص 328) ح800

[5] صحيح البخاري - (ج 21 / ص 465) ح 6548 ; صحيح مسلم - (ج 13 / ص 39) ح4739; سنن أبي داود - (ج 7 / ص 150) ح2220; سنن ابن ماجه - (ج 11 / ص 219)ح 3768 .

[6] مصنف عبد الرزاق - (ج 5 / ص 139) ح 9187.

" [52] ، وقال (ص) " إِذَا الْمُسْلِمَانِ حَمَلَ أَحَدُهُمَا عَلَى أَخِيهِ السِّلَاحَ فَهُمَا عَلَى جُرْفِ جَهَنَّمَ فَإِذَا قَتَلَ أَحَدُهُمَا صَاحِبَهُ دَخَلَاهَا جَمِيعًا "[1] [53] .

فقتل النفس المؤمنة من اعظم الحرمات التي ترتكب على وجه الارض فلم يبيح الاسلام قتل هذه النفس لأي سبب كان وبذلك يمكننا ان نعرف النفس المؤمنة هي تلك النفس التي اقرت بالله رباً وبالإسلام ديناً ولم ترتكب المعاصي التي تستوجب الحدود في الشريعة الاسلامية فحرمتها أعظم من الكعبة الشريفة فعن ابن عباس و عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَطُوفُ بِالْكَعْبَةِ وَيَقُولُ مَا أَطْيَبَكِ وَأَطْيَبَ رِيحَكِ مَا أَعْظَمَكِ وَأَعْظَمَ حُرْمَتَكِ وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَحُرْمَةُ الْمُؤْمِنِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ حُرْمَةً مِنْكِ مَالِهِ وَدَمِهِ وَأَنْ نَظُنَّ بِهِ إِلَّا خَيْرًا[2] .[56]وجاء عن رسول الله (ص) " كُلُّ ذَنْبٍ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَغْفِرَهُ إِلَّا مَنْ مَاتَ مُشْرِكًا أَوْ مُؤْمِنٌ قَتَلَ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا[3] " [57]ولقد سأل الرسول الكريم الله عز وجل ثلاث مرات ان يجعل لقاتل المؤمن توبة فأبى عليه ذلك[4] [59] .وسئل أبو هريرة؛ عن قَاتِلِ الْمُؤْمِنِ ، هَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ : لاَ ، وَاللَّهِ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ، لاَ يَدْخُلُ الجَنَّة حتى يَلِجَ الجَمَلُ فِي سَمِّ الخِيَاطِ ، قَالَ : وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَشْرَكُوا فِي دَمِ مُؤْمِنٍ إِلاَّ كَبَّهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فِي النَّارِ»[5] [60] .و جَاءَ رَجُلٌ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ فَقَالَ يَا ابْنَ

---

[1] صحيح مسلم - (ج 14 / ص 64) ح5141; سنن النسائي - (ج 12 / ص 490) ح 4047; سنن ابن ماجه - (ج 11 / ص 460) ح3955; السنن الكبرى للنسائي - (ج 2 / ص 315) ح3582.

[2] سنن ابن ماجه - (ج 11 / ص 418)ح3922 ; المعجم الكبير للطبراني - (ج 9 / ص 249) ح10804; سنن الترمذي - (ج 7 / ص 337) ح1955.

[3] سنن أبي داود - (ج 11 / ص 341) ح3724; المعجم الكبير للطبراني - (ج 20 / ص 264) ح1777; المعجم الأوسط للطبراني - (ج 20 / ص 68) ح 11284; صحيح ابن حبان - (ج 24 / ص 497)ح 6080.

[4] مسند أحمد - (ج 45 / ص 475) ح21452.

[5] تفسير الثعالبي

عَبَّاسٍ أَرَأَيْتَ رَجُلًا قَتَلَ مُؤْمِنًا قَالَ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : { جَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا ... }إِلَى آخِرِ الْآيَةِ قَالَ : فَقَالَ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ أَرَأَيْتَ إِنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا قَالَ : ثَكِلَتْهُ أُمُّهُ وَأَنَّى لَهُ التَّوْبَةُ وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (ص) إِنَّ الْمَقْتُولَ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُتَعَلِّقًا رَأْسَهُ بِيَمِينِهِ أَوْ قَالَ بِشِمَالِهِ آخِذًا صَاحِبَهُ بِيَدِهِ الْأُخْرَى تَشْخَبُ أَوْدَاجُهُ دَمًا فِي قُبُلِ عَرْشِ الرَّحْمَنِ فَيَقُولُ رَبِّ سَلْ هَذَا فِيمَ قَتَلَنِي[1] (61) . وجاء عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (ص) " وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَتْلُ مُؤْمِنٍ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ زَوَالِ الدُّنْيَا " (63) . وعن ابن عباس في قوله { من يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم } فقال : ما نسخها شيء[2] .(64)

المحاضرة الخامسة فضل الدعوة إلى الله ثالثة كتاب وسنة

مقدمة:الدعوة إلى الله تعالى مهمة الأنبياء، وميراثهم في أممهم ، أشرف المقاصد، وأعلى المراتب، ومن الدعوة إلى الله أن يفعل العبد ما أحبه الله ورسوله، ويترك ما أبغضه الله ورسوله من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة ، فموضوعها التصدي لتعريف الناس بالدين الذي ارتضاه الله للبشرية ديناً، بقواعده ونظمه وتشريعاته وآدابه، وحثهم على الالتزام بها والاستمساك بعراها، سواء كانت الدعوة موجهة لمسلم أو كافر، وسواء كانت تعريفاً بمبادئه، أو وعظاً بقرآنه، أو تذكيراً بشيء من شرائعه وفروعه، أو أمراً بمعروف الشرع الحكيم ، ونهياً عن منكره، أو فعلاً حسناً يقتدي به الناس، فيرغبهم في مرضاة الله أو يذكرهم ببعض وجوهه، فهذا كله من

[1] مسند أحمد - (ج 6 / ص 83) ح2551

[2] السنن الكبرى للنسائي - (ج 6 / ص 326) ح(11115) ;

الدعوة. واليوم تنوعت وسائل الدعوة، وتعددت مؤسساتها، ولم تعد مقتصرة على الصورة التقليدية الجميلة التي ألفناها في تاريخنا الطويل، فقد استجد لدينا منها فنون متنوعة، وأبواب متجددة، فقد دخلت وسائط الدعوة الجديدة إلى كل بيت عبر قنوات التلفاز ومواقع الشبكة العنكبوتية وبرامج التواصل والدردشة، ولم تعد الدعوة بالضرورة عملاً فردياً يقوم به إمام في مسجد، أو شيخ في مناسبة، لا بل لم تعُد حكراً العلماء وطلاب العلم، بل أصبحت عملاً جماعياً، يشترك فيه حتى عوام الناس.وهذا التطور ليس خاصاً بالدعوة الإسلامية ووسائلها، بل لعل الرابح الأكبر منه هو القوى المعادية للإسلام التي وجدت فيه منفذاً للولوج إلى حصون لطالما استعصت عليهم، فازداد التحدي، ووجب التجديد في وسائل الدعوة واستراتيجياتها ، لتلائم وتوائم التطور المتسارع، وتكافئ الكم والكيف للقوى التي تنافح الدعوة الإسلامية. إننا اليوم معاشر الدعاة بحاجة إلى تجديد خطابنا الدعوي وآلياتنا في هذا العمل النبيل، هذا التجديد لا يعني التفلت من الأصول ولا الفروع، بل إعادة قراءة تجاربنا الدعوية ونتاجها والنظر في واقعنا ومستجدات مجتمعاتنا، ثم رسم أولويات الدعوة ومنهجها من حيث انتهى المجددون في أعصُر الإسلام المتتاليات، الذين صدق فيهم قول النبي ρ: (إن الله تعالى يبعث على رأس كل مائة سنة مَن يجدد لهذه الأمة أمر دينها)[1]. وليس المقصود بتجديد الدين اختراعَ شرائعَ جديدةٍ أو ابتداعَ عقائدَ مستحدثةٍ، بل (المراد من تجديد الدين للأمة إحياءُ ما اندرس من العمل بالكتاب والسنة ، والأمرُ بمقتضاهما ، وإماتةُ البدع والمحدثات ، وكسرُ أهلها باللسان ، أو تصنيفُ الكتب

(1) أخرجه أبو داود ح (4291) والحاكم (4 / 522) ، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ح (599).

، أو التدريسُ أو غيرُ ذلك)[1]، أي أن مهمة المجدد فرداً كان أو مؤسسة؛ هي التذكير بما تمس الحاجة إليه من المعاني الشرعية الغائبة عن أذهان الناس، بسبب الجهل أو النسيان أو الغفلة أو غلبة التصورات المادية والضغوط الحياتية,وقد جمع الإمام أحمد معنى التجديد بقوله: (إن الله تعالى يقيض للناس في كل رأس مائة سنة من يعلمهم السنن، وينفي عن رسول الله ρ الكذب)[2]، فالأمة المسلمة بحاجة دوماً إلى هذا النوع من التجديد ، لتسير على هدي من كتاب ربها وسنة نبيها ρ في معالجة أمراض واقعها ودفع الأباطيل التي تستهدف عبودية الأمة لربها، وسيرها في مراضيه ومحبوباته.

أولا- تعريف الدعوة:

1-التعريف اللغوي : الدعوة مأخوذة من كلمة (دعا) في اللغة ولها عدة معان منها:

دعاه : ناداه وطلبه ، ودعاه إلى الشيء وللشيء : حثه عليه ، ودعاه إلى الله : أي إلى عبادته . والدعاة : قوم يدعون إلى بيعة هدى أو ضلالة ، واحدهم داع[3].و في القرآن الكريم ورد ما يدل على المعاني السابقة منها قول الله تعالى : (ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله و عمل صالحا وقال إنني من المسلمين كه) (فصلت :33) . أي حث على

(1) مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، أبو الحسن المباركفوري (340/1).

(2) موسوعة أقوال الإمام أحمد بن حنبل في رجال الحديث وعلله، جمع وترتيب : السيد أبو المعاطي النوري وآخرين (80/3).

[3] انظر : لسان العرب ابن منظور , 258/14-261 , مادة (دعا) دار الفكر بيروت ط١

عبادة الله[1] ، وقول الله تعالى : (وقال رب إني دعوت قومي ليلا ونهارا) (نوح :5) أي دعوتهم إلى عبادة الله وحثتهم عليها[2].

2-**التعريف الاصطلاحي:** عرفت الدعوة بعدة تعريفات لكنها تدور حول معنيين :

-

1 -الإسلام.. 2 -فن نشر الإسلام بين الناس[3] . وقد عرفها على المعنى الأول علماء ودعاة منهم :-

أ. شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله . قال:(الدعوة إلى الله هي الدعوة إلى الإيمان به ، وبما جاءت به رسله ، بتصديقهم فيما أخبروا به ، وطاعتهم فيما أمروا به ، وذلك يتضمن الدعوة إلى الشهادتين ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان، وحج البيت ، والدعوة إلى الإيمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، والبعث بعد الموت ، والإيمان بالقدر خيره و شره والدعوة إلى أن يعبد العبد ربه كأنه يراه)[4] .

ب – الدكتور: توفيق الواعي ، قال : (الدعوة إلى توحيد الله , والإقرار بالشهادتين وتنفيذ منهج الله في الأرض ، قولا وعملا ، كما جاء في القرآن الكريم والسنة المطهرة ، ليكون الدين كله لله)[5].

وعرفها على المعنى الثاني كثير من العلماء والدعاة منهم :.

---

[1] إبراهيم عليه السلام ودعوته في القرآن , رسالة ماجستير مطبوعة أحمد البراء الأميري ص 21 دار المنارة , جدة . ط1, 1406هـ

[2] المصدر السابق ,

[3] التدرج في دعوة النبي ρ , إبراهيم بن عبد الله المطلق ص 34 رسالة ماجستير غير مطبوعة .

[4] مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية 15/157-158 جمع عبد الرحمن بن قاسم توزيع الرئاسة العامة لشئون الحرمين

[5] الدعوة إلى الله: الرسالة ، الوسيلة ، الهدف د توفيق الواعي ص.19

أ-الأستاذ أبو المجد نوفل فقال : (إن الدعوة هي قيام من عنده أهلية النصح والتوجيه السديد من المسلمين في كل زمان ومكان بترغيب الناس في الإسلام اعتقادا ومنهجا وتحذيرهم من غيره بطرق مخصوصة)[1]

ب- الشيخ / محمد سيدي الحبيب ، قال : (إن الدعوة إلى الله هي : قيام من له أهلية بدعوة الناس جميعا في كل زمان ومكان لاقتفاء أثر رسول اللهρ والتأسي به قولا وعملا وسلوكا)[2] . وبعد النظر في كثير من التعريفات فإن بحثي هذا . فموضوع الدعوة يشمل المعنيين السابقين للدعوة الإسلام بما حوى من عقيدة وشريعة وأخلاق. وأيضا : دراسة الطريقة التي سلكها النبيρ في دعوته للناس.

ج-(العلم الذي به تعرف كافة المحاولات الفنية المتعددة الرامية إلى تبليغ الناس الإسلام بما حوى: من عقيدة، وشريعة، وأخلاق)[3]

ويمكن تعريفها بالقول بأنها : (استنباط، وفهم تاريخ الدعوة، وأسبابها، وأركانها، وأساليبها، ووسائلها، وأهدافها، ونتائجها: استنباطا وفهما على ضوء الكتاب، والسنة، وفهم السلف الصالح، يُمَكِّن الدعاة إلى اللّه تعالى من عرضها بأحسن طريقة، وأكثر ملاءمة لمن توجه إليهم الدعوة في مختلف بيئاتهم، ومتباين ألسنتهم، ولغاتهم، ومتعدد أجناسهم)[4]

ثانيا: حكم الدعوة

[1] الدعوة إلى الله خصائصها ، مقوماتها ، مناهجها أبو المجد نوفل, ص 18 بدون تاريخ ولا ذكر للناشر

[2] الدعوة إلى الله في سورة إبراهيم الخليل محمد بن سيدي بن الحبيب ص 27, دار الوفاء جدة, ط1, 1406هـ

[3] الدعوة الإسلامية: أصولها ووسائلها، للدكتور أحمد غلوش، ص 10 .

[4] نظر: فقه الدعوة إلى الله، للدكتور علي عبد الحليم محمود1 / 1/ 18 .

الدعوة إلى الله ليست ترفاً اختيارياً نمارسه إذا شئنا، ونتركه إذا سئمنا، بل هي تكليف رباني وعبادة متجددة لا غناء لنا عنها في مواجهة جاهلية عاتية، لا يبددها إلا قيامنا بالدعوة إلا الله تعالى على أكمل وجه وأحسن صورة.

وقد اختلف العلماء في حكم الدعوة ، فعدَّها بعضهم من فروض الكفايات التي أوجبها الله على عموم أمة الإسلام، فإن قام بها من يكفي منهم سقط الإثم عن الباقين. أما إن قصروا أو تهاونوا أو امتنعوا؛ أثموا جميعاً، واستدلوا بقول الله تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران: 104)، فقوله: ﴿منكم﴾ يشير إلى وجوب الدعوة الكفائي. ولا ريب أن أهل العلم هم أولى الناس للقيام بهذا الواجب، لما شرفهم الله من أدواته ووسائله ﴿ وما كان المؤمنون لينفروا كافةً فلولا نفر من كل فرقةٍ منهم طائفةٌ ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون ﴾ (التوبة: 122).وذهب آخرون من أهل العلم إلى أن الدعوة فرض على الأعيان، أي تجب على كل مسلم، واستدلوا لذلك بالآيات والأحاديث التي تلزم المسلمين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا تفرق بين عالم وغيره، فكل يدعو بقدر طاقته وإمكاناته (كلكم راع، وكلكم مسئول عن رعيته)[1]، وقد حكم الله تعالى بهلاك بني آدم ؛ فلم يستثن منهم إلا المؤمنين الداعين إلى الله والمتواصين به ﴿وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ (العصر: 1-3).

وقد جمع شيخ الإسلام ابن تيمية بين القول بالوجوب العيني والكفائي فقال: (الدعوة إلى الله تجب على كل مسلم ؛ لكنها فرض على الكفاية، وإنما يجب على

1- أخرجه البخاري ح (893)، ومسلم ح (1829).

الرجل المعين من ذلك ما يقدر عليه إذا لم يقم به غيرُه، وهذا شأن الأمرِ بالمعروف والنهي عن المنكر وتبليغِ ما جاء به الرسول والجهادِ في سبيل الله وتعليمِ الإيمان والقرآن)[1].وأياً كان الوجوب في الدعوة عينياً أم كفائياً ؛ فإنه يلزمنا اليوم جميعاً التصدي لهذا العمل العظيم، ولا يليق بأحدنا أخذ إجازة مفتوحة عن الدعوة إلى الله وبلاغ دينه، بذريعة أنها من واجبات الكفاية، فأي كفاية تحققت في زماننا، والملايين من البشر لم يسمعوا عن الإسلام ابتداءً، ولا رأوا القرآن الكريم أبداً، وبعضهم سمع عنه من أعدائه وشانئيه، ولم ير في حياته واحداً منا يصحح تصوره المغلوط عن الإسلام!!، فهل يقبل – والحال هذه- تذرعنا بمسألة الكفاية، لتبرير تقاعسنا وتوانينا عن القيام بواجبنا في التعريف بدين الله والدعوة إليه.أما نخشى أن يتعلق بعض هؤلاء برقابنا يوم القيامة، ويقولوا: يا رب قد قصروا في دعوتنا، شغلهم المال والبنون عن الدعوة والبلاغ والتبيين.ومن أراد أن يتيقن بأننا لم نقم بواجب الكفاية، فليستعلِم: مثال ذلك:كم من موقع لأمة الإسلام على شبكة الإنترنت يعرف به باللغة الصينية التي ينطق بها خُمس سكان العالم؟ ألا نخجل من شكاة الأمم التي لم نترجم إلى لسانها معاني القرآن الكريم؟ أما آن أن نسأل أنفسنا ومؤسساتنا الدعوية: كم من داعية أعددناه ليقوم بالكفاية عنا في دعوة مليار من أهل الصين، ومثلِهم من أهل الهند، ومثلهم من الملاحدة الذين كفروا بالأديان لِما رأوا فيها من تبديل وتحريف وخرافات، ولم يجدوا منا مبلغاً يطلعهم على حقائق الإسلام وروائعه ، فبقوا أُسارى ظنونهم بأن الإسلام لا يختلف عن الأديان التي يعرفون، ومنها يفرون. وفي عصرنا تقارب العالم، وحولته الوسائط الإلكترونية الحديثة إلى قرية صغيرة، فما عاد لنا عذر نتعلق به ونستتر به عن

(1) مجموع الفتاوى (166/15).

تخلفنا في الوفاء بواجب ديننا علينا في البلاغ والتبيين، ويصدق فينا قول الإمام النووي: (وقد يتعين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يعني يصير فرض عين، كما إذا كان في موضع لا يعلم به إلا هو، أو لا يتمكن من إزالته إلا هو، وكمن يرى زوجته أو ولده أو غلامه على منكر أو تقصير في المعروف)[1].وهكذا، فإنا معاشر المسلمين مطالبون جميعاً بالدعوة إلى الله بين المسلمين وغيرهم ممن يعيش حولنا، أو يمكننا الوصول إليه عبر الإنترنت أو غيره، وكلٌ يكلف بحسب قدرته وطاقته، فمنا من يتكلم فيعظ ويعلم، ومنا من يكتب ويبين، ومنا من لا يقدر على ذلك ، لكنه يترجم جهود العلماء وطلاب العلم ، وينقل عن كتبهم ومقالاتهم ومحاضراتهم المرئية والمسموعة، فيوصلها عبر الوسائط الإلكترونية إلى من يحتاج إليها ، فيشارك أهل العلم دعوتهم ، وينافسهم في أجورهم، و(الدال على الخير كفاعله)[2].

ثالثا : فضل الدعوة.

إذا كان حكم الدعوة إلى الله يدور بين فرض العين وفرض الكفاية، فإن المسلم الحريصَ الضنينَ بآخرته أسرعُ الناس إلى المسابقة إليه، لما في هذه العبادة من فضل يرفع عند الله مقداره ، ويثقل في الآخرة ميزانه، فقد ورد في فضل الدعوة وتعليم الناس الخير والعلم ودلالتهم عليه نصوصٌ لا تكاد تحصى لكثرتها. فماذا أعد الله من الخير للدعاة إلى الله تعالى؟ وماذا ينتظرهم من عظيم الأجر عنده؟ وما هي منزلة الدعاة عنده تعالى؟ إن الدعوة إلى الله ودينه من أشرف العبادات عند الله، والقائمون بها وُراث منصب النبوة.. الدعاة ملح الأرض، لا تصلح الأرض

(1) شرح النووي على صحيح مسلم (23/2).

(2) أخرجه أحمد ح (23027)، وصححه شعيب الأرناؤوط في تخريجه للمسند (132/38).

بدونهم، وكيف لها أن تصلح بدون أحسن الناس قولاً وعملاً بشهادة ربهم تبارك وتعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صالِحاً وَقالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (فصلت:33). قال أبو حيان التوحيدي: (أي: لا أحدَ أحسنُ قولاً ممن يدعو إلى توحيد الله ، ويعمل العمل الصالح ،ويصرح أنه من المستسلمين لأمر الله المنقادين له ، والظاهر (في أهل هذه الآية) العموم في كل داع إلى الله ، وإلى العموم ذهب الحسن ومقاتل وجماعة. وقيل بالخصوص ، فقال ابن عباس: هو رسول الله ρ)[1].وقال ابن القيم:(وإذا كانت الدعوة إلى الله أشرف مقامات العبد وأجلَّها وأفضلَها ، فهي لا تُحصَّل إلا بالعلم الذي يدعى به وإليه، بل لا بد في كمال الدعوة من البلوغ في العلم إلى حد يصل إليه السعي، ويكفي هذا في شرف العلم أن صاحبه يحوز به هذا المقام، والله يؤتي فضله من يشاء)[2]. ويحوز الداعية المزيد من أسباب الخيرية عندما يشارك الناس في أجورهم حين يعملون بموجب دعوته وإرشاده، فيُصلُّون قيام الليل مثلاً لحديث سمعوه منه، أو يتصدقون لآية قرأوها في مقاله، أو يصِلون أرحامهم، أو يعودون مرضاهم.. إلى غير ذلك من أبواب البر التي يتناولها الدعاة في وعظهم، وما أكثرها، فحين يمتثل الناس ذلك، فإنما يضيفون في حسنات الداعية أجوراً لا يعلمها، لكن الله يعلمها، ولا يضيع له نصيبه منها، فقد فقال ﷺ: (من دل على خير فله مثلُ أجر فاعله)[3]، وهذا الحديث العظيم (فيه فضيلةُ الدلالة على الخير، والتنبيهِ عليه، والمساعدةِ لفاعله، وفيه فضيلةُ تعليم العلم ووظائفِ العبادات؛ لاسيما لمن يعمل بها من

(1) البحر المحيط (475/7).

(2) مفتاح دار السعادة (153/1).

(3) أخرجه مسلم ح (1893).

المتعبدين وغيرِهم)[1]. وفي حديث آخر قال ﷺ: (من دعا إلى هدىً كان له من الأجر مثلُ أجور من تبعه لا يَنقُص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثلُ آثام من تبعه لا يَنقص ذلك من آثامهم شيئاً)[2]. قال المناوي: (من تأمل هذا المعنى ورُزق التوفيق انبعثت همته إلى التعليم ورغب في نشر العلم ليتضاعف أجره في الحياة وبعد الممات على الدوام، ويكفَ عن إحداث البدع والمظالم من المكوس وغيرها، فإنها تضاعف عليه السيئات بالطريق المذكور ما دام يعمل بها عامل ،

فليتأمل المسلم هذا المعنى وسعادةَ الدال على الخير وشقاوةَ الدال على الشر)[3]. وقد اختلف العلماء في قدر الثواب الذي يناله الدال على الخير، فرأى الإمامان النووي وابن الجوزي وغيرُهما أنه ينال (ثواباً بذلك الفعل، كما أن لفاعله ثواباً، ولا يلزم أن يكون قدرُ ثوابهما سواء)[4]. وذهب آخرون إلى تساوي ثواب الدال على الخير وثواب فاعله في أصل أجر الطاعة، وأن الفاعل يختص عن الدال بمضاعفة الأجر ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون ﴾ (الأنعام: 160). وأما الإمام القرطبي فيرى أن الدال والفاعل متساويان في الأجر والتضعيف، بل قد يزيد أجر الدال على أجر العامل: (إنه مثله سواء في القدر والتضعيف، لأن الثواب على الأعمال إنما هو بفضل من الله، يهبه لمن يشاء على أي شيء صدر منه؛ خصوصاً إذا صحَّت النية التي هي أصل الأعمال

(1) شرح النووي على مسلم (39/13).

(2) أخرجه مسلم ح (2674).

(3) فيض القدير (165/6).

(4) شرح النووي على مسلم (39/13)، وكشف المشكل من حديث الصحيحين ، ص (439).

في طاعةٍ عجز عن فعلها لمانع منعَ منها، فلا بُعد في مساواة أجر ذلك العاجز لأجر القادر والفاعل، أو يزيدُ عليه)[1]. ومما يدل أيضاً على فضل عبادة الدعوة إلى الله ما رواه الشيخان وغيرهما من خبر علي τ يوم خيبر، فقد عقد له النبي ﷺ الراية ، وأوصاه بوصية جامعة: (انفُذ على رِسلك (أي امض على مهل) حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه، فو الله لأن يهديَ الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من حُمْر النعم)[2].

وفي رواية في إسنادها ضعف أن النبي ﷺ قال: (لأن يهدي الله على يديك رجلاً خير لك مما طلعت عليه الشمس وغربت)[3] أي خير من الدنيا وما عليها. قال النووي: عن حمْر النعم: (هي الإبل الحمْر ، وهي أنفَس أموال العرب ، يضربون بها المثل في نفاسة الشيء ، وأنه ليس هناك أعظم منه . .. تشبيه أمور الآخرة بأعراض الدنيا إنما هو للتقريب من الأفهام ، وإلا فذرَّة من الآخرة الباقية خيرٌ من الأرض بأسرها ، وأمثالِها معها لو تُصورِت، وفي هذا الحديث بيان فضيلة العلم ، والدعاءِ إلى الهدى ، وسنِ السنن الحسنة)[4].وفهمه آخرون من العلماء على أن المراد منه أن دلالة الناس وإرشادهم: (خير لَكَ مِنْ أن تكون لك (حمر النعم)، فتتصدق بها)[5]. ومما يحفز المؤمن على الدعوة إلى الله ويشهد لعظيم فضلها قوله ﷺ: (إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقةٍ جارية، أو علمٍ ينتفع به، أو ولدٍ صالح يدعو له)، والداعية يترك بين الناس علماً يرشد الناس إلى جنة الله ومحبوباته، فياله من

(1) عون المعبود (26/14).

(2) أخرجه البخاري ح (3701)، ومسلم ح (2406).

(3) أخرجه الطبراني في الكبير ح (930)، والحاكم ح (6537)، وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة ح (2950).

(4) شرح النووي على صحيح مسلم (150/8).

(5) فتح الباري (478/7).

فضل يناله، وثواب يحوزه حين يطوي الثرى عظامه، فلا تطوى سجل حسناته .. كلما عمل عامل، أو تعلم متعلم من أثره كتب الله له بذلك أجراً.

ماتوا وغُيب في التراب شخوصُهم والنشر مسكٌ والعظام رميم

وأخيراً ، فيكفي الداعية شرفاً وفضلاً دعاء النبي ﷺ له: (نضر الله امرأ سمع منا شيئاً ، فبلغه كما سمعه ، فرب مبلَّغ أوعى من سامع)[1]، ومعناه مأخوذ من: (النضرة: الحُسن والرونق .خُص (مبلغ الناس الخير) بالبهجة والسرور والمنزلة في الناس في الدنيا ونعمة في الآخرة حتى يَرى رونق الرضاء والنعمة، لأنه سعى في نضارة العلم وتجديد السُّنة)[2].

رابعا: عقوبة ترك واجب الدعوة إلى الله.

إن من المعلوم أن الله خلق الناس أحراراً، لكن حريتهم تنتهي حين تنتهك حرية الآخرين، والعاصي حين يعصي ربه لا يعتدي على حق الله فحسب، ولا يستجلب الشقاء لنفسه فقط، فمعصيته التي يسميها حرية شخصية يستجلب بها غضب الجبار على عموم المجتمع من حوله ، ويستمطر العذاب عليهم من السماء، ذلك أن لله قانوناً يتناساه البطالون يقضي بعقوبة المجتمع ؛ كلِ المجتمع إذا ظهرت المعاصي وفشت بين الناس من غير نكير ولا تبصير، قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (الأنفال: 25).وقال القرطبي: «قال علماؤنا: فالفتنة إذا عُملت ، هلك الكل ، وذلك عند ظهور المعاصي، وانتشار المنكر ، وعدم التغيير»، وقد قال عمر τ: «إن الله لا

(1) أخرجه الترمذي ح (2657)، وأحمد ح (4157)، و ابن ماجه ح (232)، وصححه الألباني في صحيح الترمذي.
(2) شرح سنن ابن ماجة، للسيوطي ، ص (21).

يعذب العامة بذنب الخاصة ، ولكن إذا عُمل المنكر جهاراً استحقوا العقوبة كلهم».وقد قال الحبر ابن عباس: «أمر الله المؤمنين أن لا يقِروا المنكر بين ظهرانيهم، فيعمهم الله بالعذاب»[1].

ونزول العذاب بعموم الأمة يؤذي فيمن يؤذيه ؛ المؤمنين لأنهم ممن يقع عليهم العذاب، لكن هؤلاء الصالحين يكون أذاهم في الدنيا دون الآخرة، قال ﷺ: «إذا ظهرت المعاصي في أمتي عمهم اللّه بعذاب من عنده» فقالت عائشة: يا رسول اللّه، أما فيهم أناس صالحون؟ قال: «بلى .. يصيبهم ما أصاب الناس، ثم يصيرون إلى مغفرة من اللّه ورضوان»[2]، وفي حديث آخر: «إذا أنزل الله بقوم عذاباً أصاب العذاب من كان فيهم، ثم بعثوا على أعمالهم»[3]، ولا يظلم ربنا أحداً.وهكذا، فحين يقوم الدعاة إلى الله بواجبهم في النصح والإرشاد؛ فإنهم يدفعون عن أهلهم البأس والأذى، ويحققون الضمان والأمان لعموم مجتمعهم.

ويكونوا صالحين في ذواتهم ؛ مصلحين لمن حولهم: قال الله تعالى المؤمنين ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ (هود: 116).وفي الحديث أن أم المؤمنين زينبَ بنتَ جحش رضي الله عنها قالت: يا رسول الله، أنهلك وفينا الصالحون؟ فقال: (نعم، إذا كثُر الخبث)[4]، فوجود الصالحين في مجتمع ما لا يمنع نزول العذاب، وأما وجود الدعاة المصلحين الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر فهو الأمان والضمان لأهل الأرض من عذاب السماء.

---

(1) الجامع لأحكام القرآن (392/7).

(2) أخرجه أحمد ح (26596)، والطبراني في المعجم الكبير ح (747)، وضعف إسناده شعيب الأرناؤوط في تخريجه للمسند (216/44).

(3) أخرجه البخاري ح (6691)، ومسلم ح (2879).

(4) أخرجه البخاري ح (3346)، ومسلم ح (2880).

وفي عهد الصدر الأول؛ لما سمع بعض الصحابة قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ (المائدة: 105)، فهموا منها أن لا حرج عليهم في وجودهم والمعصية والعاصين جنباً إلى جنب، ما داموا لا يفعلون المعصية ولا يرتعون فيها، فصحح لهم أبو بكر الصديق فهمهم، وقال: (يا أيها الناس، إنكم تقرؤون هذه الآية، وتضعونها على غير مواضعها، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه؛ يوشك أن يعمهم الله بعقابه)، وفي رواية: (ما من قوم يُعمل فيهم بالمعاصي، ثم يقدرون على أن يغيروا ثم لا يغيرون إلا يوشك أن يعمهم الله بعقاب»[1]، فقوله: ﴿لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ معناه : قوموا بالدعوة إلى الحق وتبصير الناس، ثم لا يضيركم ضلال من ضل بعد ذلك، فالله لن يؤاخذ المصلح بجريرة المفسد وعدمِ قبوله للنصح والتذكير.

إننا حين نترك هؤلاء العابثين يفعلون ما يحلو لهم من غير وعظ ولا إرشاد ولا تنبيه؛ فإنما نعرض سفينة المجتمع للغرق في بحور الرذيلة والفوضى والمشكلات الاجتماعية والصحية، ، وقد شبه النبي ﷺ هؤلاء العابثين بقوم ركبوا في سفينة، وأرادوا أن يخرقوا في نصيبهم منها بزعم أنه نصيبهم، وأن هذا من حقهم بموجب الحرية المزعومة، وأنهم لا يريدون إيذاء الآخرين ولا مضايقتهم فعن النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : (مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا ، كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا ، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ

(1) أخرجه أبو داود ح (4338)، وأبو يعلى في مسنده ح (128)، وصحح إسناده الألباني في صحيح وضعيف أبي داود.

، فَقَالُوا : لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا ، وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا ، فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا ، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعًا) [1].

ومن أعظم الخير الذي يفوت عموم الأمة إذا قعد الدعاة أو تلكؤوا عن الدعوة إلى الله وإلى معالم دينه؛ غلقُ أبواب السماء دون دعوات المؤمنين وردُّها وعدم قبولها.. تُرد دعواتهم وهم أحوج إلى ربنا وعونه في كل شاردة وواردة، ولا غناء لهم ولا لغيرهم طرفة عين عن رعايته، وتركُنا لواجب الدعوة يوصد أبواب الرحمة عنا، ويحيل دعواتنا إلى كلمات بكماء لا مجيب لها، قال ﷺ: (والذي نفسي بيده، لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله يبعث عليكم عقاباً منه، ثم تدعونه فلا يستجيب لكم)[2]، فأي مصيبة تلك التي تلحقنا حين ندعو الله فلا يستجيب لنا بسبب تقصير بعضنا في الدعوة، وغيرهم بالمعصية!!.

خامسا : أدنى مراتب الدعوة والإيمان , وإنكار المنكر بالقلب

إنه في مجتمعات تسودها قيم الجاهلية يصبح الأمر بالمعروف جريمة يعاقب عليها القانون الذي يحمي العابثين المستهترين بشرائع الله.. فهل نترك - والحال هذه - الأمر بالمعروف والدعوة إليه ونصطلح مع المنكرات وأهلها؟فلا ريب أن الشريعة لم تكلف المسلم بما هو فوق طاقته وإمكاناته، فالدعوة إلى الله كسائر العبادات يحكمها الاستطاعة ﴿ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾ (البقرة: 286).

ولئن عجز المرء عن بعض مراتب الدعوة ودرجات إنكار المنكر؛ فإنه لن يعجز عنها جميعاً، وهو ما يبقيه مكلفاً بإنكار المنكر وكراهيته بالقدر الذي يستطيعه، فقد جعل رسول الله ρ مراتب إنكار المنكر ثلاثة: الإنكار باليد، ثم اللسان، ثم القلب،

(1) أخرجه البخاري ح (2493).

(2) أخرجه الترمذي ح (113)، وحسن إسناده الألباني في صحيح وضعيف الترمذي.

قال ρ: (ما مِنْ نبي بعثَه الله في أمَّةٍ قبلي إلاّ كان له من أُمَّتِه حَوَارِيُّون، وأصحابٌ يأخذون بسنَّتِه، ويقتدون بأمرِه، ثم إنَّها تَخْلُفُ من بعدِهم خُلُوفٌ، يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيدِه فهو مؤمنٌ، ومن جاهدهم بلسانِه فهو مؤمنٌ، ومن جاهدهم بقلبِه فهو مؤمنٌ، وليس وراء ذلك من الإيمان حبةُ خردل)[1].

خاتمة هذا الحديث العظيم ذكر ρ فيها مرتبة إنكار المنكر بالقلب، وعقب عليها بالقول: «وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل»، وفي حديث آخر: (فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان)[2]، فجعل ρ إنكار المنكر في القلب أدنى مراتب الإيمان وآخرَها وأقلَّها، وذلك أنه لا يعجز عنها أحد .. القوي والضعيف، والغني والفقير، والرجل والمرأة ، لذا لما تكلم يحيى بن معاذ الرازي يوماً في الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قالت له امرأة: هذا واجب قد وُضع عنا. فقال: (هبي أنه قد وُضِع عنكن سلاحُ اليد واللسان، فلمْ يوضع عنكن سلاحُ القلب)[3].

قال الشيخ ابن تيمية: (فأما القلب فيجب [الإنكار به] بكل حال؛ إذ لا ضرر في فعله، ومن لم يفعله فليس هو بمؤمن كما قال النبي ρ : (وذلك أدنى أو أضعف الإيمان) .... فأما حب القلب وبغضه وإرادته وكراهته فينبغي أن تكون كاملة جازمة، لا يوجب نقص ذلك إلا نقص الإيمان)[4].

(1) أخرجه مسلم ح (50).

(2) أخرجه مسلم أيضاً ح (50).

(3) إعلام الموقعين ، ابن القيم (157/2).

(4) الاستقامة (2/ 212-221).

وقال ابن رجب: (إنكاره بالقلب لا بد منه ، فمن لم ينكر قلبُه المنكرَ؛ دل على ذهاب الإيمان من قلبه)[1]، وقال ابن حزم: (ذلك أضعف الإيمان ؛ فإن لم يفعل فلا إيمان له)[2]

والإنكار بالقلب لابد أن ينضاف إليه معنى الكراهية والتحسر والألم لوقوع العباد في مخالفة أمر الله العظيم ، وعصيانِهم للملك الديان ، وذلك غَيرة على الله وحرماته، كمن مرَّ على امرأة سافرة أو رجل يعاقر موبقاً، فإنكار قلبه لا يتحقق بمجرد معرفته بحرمة فعلهما، بل لابد من تحركُ القلب كراهيةً للمعصية وتبرماً من وقوعها , ورحم الله مطرِّفَ بنَ عبد الله القائل: (وددت لو أن جسمي يقرض بالمقاريض، وأن هذا الخلق أطاعوا الله)[3].

إن الذين لا ينكرون المنكر قد تعرضوا لمسببات الفتن، وعرضوا قلبهم لنزغات الشيطان ، فقد قال ρ : (تعرَض الفِتن على القلوبِ كالحصير عوداً عوداً، فأيّ قلبٍ أُشرِبها نُكِتت فيه نكتةٌ سوداء، وأيّ قلب أنكَرها نكِتت فيه نكتةٌ بيضاء، حتى تصيرَ على قلبين: على أبيضَ مثلِ الصفا، فلا تضرُّه فتنةٌ ما دامتِ السموات والأرض، والآخرُ أسودُ مربادّاً كالكوز مجخِّياً [كالكأس المقلوب]، لا يعرفُ معروفاً، ولا ينكر منكراً إلاّ ما أُشرِب من هواه)[4]. والذين لا ينكرون المنكر بقلوبهم، لا يملكون – على الحقيقة - قلوباً، بل هم أموات في أثواب أحياء.. لما سئل ابن مسعود : (من ميت الأحياء؟ قال: الذي لا يعرف معروفاً، ولا ينكر منكراً)[5].

(1) جامع العلوم والحكم (321/1).

(2) شرح النووي على صحيح مسلم (131/1).

(3) حلية الأولياء، أبو نعيم الأصفهاني (150/10).

(4) أخرجه مسلم ح (144).

(5) مجموع الفتاوى، ابن تيمية (127/28).

وأما صاحب القلب الحي فيتفطر قلبه حياء من الله حين يرى معصيته في الأرض ، قال علي τ: (أي قلب لم يعرف المعروف ولا ينكر المنكر نكِّس، فجُعِل أعلاه أسفلَه)[1]، وقال ابن مسعود τ: (هلك من لم يعرِّف المعروف بقلبه، ولم ينكر المنكر بقلبه)[2]، وقال: (ستكون هَنَات وهَنَات ، فبحسب امرئ إذا رأى منكراً لا يستطيع له تغييراً أن يعلم اللهُ أنه له كاره)[3].

وللإنكار بالقلب علامات لا تخفى، فلا يتصور من منكر في قلبه أن يضحك ملء شدقيه وهو يرى المنكر ، أو أن يهش لأصحابه، ويظهر لهم الإكرام والإجلال ، أو يكونَ من جلسائهم وشركائهم في لهوهم، فهذه الأفعال وأضرابها تدل على الرضا بالمنكر، ولا تتوافق مع زعم بالكراهية له وإنكاره بالقلب، قال ابن النحاس: (من لم يقدر على الإنكار باللسان، وقدِر على إظهار دلائل الإنكار، مثل تعبيس الوجه، والنظر شذراً، والتجهم، وإظهار الكراهية لفعله، والازدراء به، وهجره في الله تعالى؛ لزمه ذلك، ولا يكفيه العدول إلى الإنكار بالقلب مع إمكان دلائل الإنكار الظاهرة)[4].

إن الرضا بالمعصية من الموبقات التي تجعل العبد شريكاً للعصاة في آثامهم، فقد قال ρ : (إذا عُملت الخطيئة في الأرض كان من شهدها فكرهها أو أنكرها كمن غاب عنها، ومن غاب عنها فرضيها كان كمن شهدها)[5]، وذلك (أن الرضا بالخطايا من أقبح المحرمات، ويفوت به إنكار الخطيئة بالقلب، وهو فرض على كل مسلم، لا

(1) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ح (37578).

(2) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ح (37581).

(3) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ح (38460).

(4) تنبيه الغافلين، ص (38).

(5) أخرجه أبو داود ح (4345).

يسقط، عن أحد في حال من الأحوال)[1]، وقد قال ρ في الرضا بالمعصية: (يكون عليكم أئمة تعرفون منهم وتنكرون، فمن أنكر فقد برئ، ومن كره فقد سلم، ولكن من رضي وتابع فأبعده الله)[2]، قال الحسن: (إنما عقر الناقة رجل واحد، فعمهم الله بالعقوبة، لأنهم عمُّوا فعله بالرضا)[3].

وأخطر من الرضا بالمعصية الفرح بها ومحبة انتشارها، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ (النور:19).

المحاضرة السادسة سمو الأخلاق في ضوء السنة النبوية

أولا: تعريف الأخلاق في اللغة وعند علماء السلوك:

(1) جامع العلوم والحكم، ابن عبد البر (245/2).

(2) أخرجه أبو عوانة في مسنده ح (7164).

(3) الاستذكار، ابن عبد البر (586/8).

1-الخُلُق في لغة العرب: هو الطَّبْع والسجيَّة، قال الفيروزآبادي: "الخُلق: بالضمِّ، وبضمتين: السجية والطَّبع، والمروءة والدين"[1].

2-الأخلاق في الاصطلاح وعند علماء السلوك: تعرف الأخلاق بعدة تعاريف منها:

أ-عرَّفها الغزالي الخُلُقَ بقوله: "الخُلُق عبارة عن هيئة في النفس راسخة، عنها تَصدُر الأفعال بسهولة ويُسرٍ من غير حاجة إلى فِكْر وروِيَّة"[2] .وتعرف "بأنها حالة نفسية تترجم بالأفعال" أي أن الأخلاق، لها جانبان؛ (جانب نفسي باطني، وجانب سلوكي ظاهري) فالسجايا هي الطباع. والسلوك هو الفعل المترجم لهذه الطباع[3].

ب-وعرفها الجرجاني بقوله: صفة في النفس تظهر آثارها في الكلام والسلوك العملي والمظهر الخارجي والصحبة المختارة[(4)].

وقد حث النبي ρ على التخلق ليتعود الإنسان عليه ويرسخ في نفسه بكثرة التكرار، قال ρ: (إنما العلم بالتعلم، وإنما الحلم بالتحلم، ومن يتحر الخير يعطه، ومن يتق الشر يوقه)[(5)]. ، ويروى عن عثمان τقوله: (من كانت له سريرة صالحة أو سيئة أظهر الله منها رداء يعرف به) [(6)].وقديماً قال الشاعر: ومهما تكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم[(7)]

---

[1] القاموس المحيط؛ الفيروزآبادي (ص: 793)، دار الفكر - بيروت

[2] إحياء علوم الدين؛ الغزالي (3: 47) - إحياء التراث

[3] علم الأخلاق الإسلامية أ د. مقداد يلجن ط2 نشر دار عالم الكتب ط دار الفكر بيروت ص34.

[(4)] انظر التعريفات للجرجاني ص 101.

[(5)] صحيح الجامع الصغير رقم 2328.

[(6)] الأجوبة المرضية فيما سئل السخاوي عنه من الأحاديث النبوية 300/1، وقال عنه إسناده ضعيف والصحيح وقفه، ومراده أنه لا يصح رفعه للنبي صلى الله عليه وسلم، ويصح موقوفاً على عثمان رضي الله عنه.

[(7)] بيت من معلقة زهير بن أبي سلمى.

ثانيا- الأخلاق في السنة النبوية :أما في السُّنَّة المطهَّرة، فقد استخدمت لفظة الخُلُق كثيرًا: ومن ذلك قول عائشة τفي وصْف خُلُق الرسول ρ: ((كان خُلُقه القرآن))[1] أي: متمسِّكًا بالقرآن وبآدابه، وأوامره ونواهيه، وما يَشتمِل عليه من المكارم والمحاسن والألطاف[2].ومنه: قوله ρ: (البِرُّ حُسْن الخُلُق)[3].

وحُسْن الخُلُق هو التخلق بأخلاق الشريعة، والتأدب بآداب الله التي أدَّب بها عبادَه في كتابه، وقد قيل: "إن الدين كله خُلُق"[4].ومنه: قوله ρ: (أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا)[5]. فالأخلاق جوهر الإسلام وروحه السارية في جميع جوانبه وقد قصر رسول الله ρأهداف رسالته عليه في قوله ρ(إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)[6] وقد قال ابن خلدون في مقدمته (الظلم مؤذن بخراب العمران)، فبقاء الأمم ببقاء أخلاقها، ولهذا قال شاعر النيل حافظ إبراهيم رحمه الله: وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإنْ همُ ذهبت أخلاقهم ذهبوا .

ثالثا:علامات الأخلاق وآثارها على المسلم: وأبرز ما يدل على أخلاق الإنسان أربعة أمور:

[1] أخرجه أحمد (23460) والحاكم (2: 393) وصحَّحه ووافقه الذهبي، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (4811).

[2] انظر لسان العرب (10: 87)، وجامع العلوم والحكم؛ لابن رجب (2: 99).

[3] أخرجه مسلم (4633) من حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه.

[4] أخرجه أحمد (795)، وأبو داود (4062) عن أبي هريرة رضي الله عنه، وقال المنذري: حسن صحيح.

[5] عون المعبود؛ العظيم آبادي (12: 343)، دار الفكر - بيروت

[6] السنن الكبرى للبيهقي , ح **20839** , ج10, ص 102

1- الكلام: تعارف الناس على أن الألفاظ والعبارات التي يفوه بها الإنسان تدل على أخلاقه – غالباً – فإذا تكررت منه تلك الألفاظ ترجح أنه متصف بذلك الخلق ، فخلق الصدق يعرف بكلام صاحبه، وكذلك خلق الكذب والغيبة والنميمة.

2- السلوك العملي:والمراد به الأعمال والتصرفات التي تجري من الإنسان، ودلالتها على الأخلاق بينة، فالإنفاق بسخاء دليل الكرم، والإمساك عن العطاء دليل البخل، .....الخ

3- المظهر الخارجي:والمراد به هيئة الإنسان وملبسه وما يصنعه بشعر رأسه ولحيته وشاربه وما يضعه في أصابعه أو معصمه أو رقبته ونحو ذلك مما له علاقة بالمظهر الذي يظهر به الإنسان أمام الآخرين، ولخطورة المظهر الخارجي ولدلالته على أخلاق صاحبه (لعن رسول الله ρ المتشبهين من الرجال بالنساء، والمتشبهات من النساء بالرجال)[1]، وأخبر ρأن (من تشبه بقوم فهو منهم)[2]، وحذر أهل الإسلام من الألبسة الشاذة في لونها أو تفصيلها فقال ρ: (من لبس ثوب شهرة ألبسه الله يوم القيامة ثوب مذلة)[3].

4- الصاحب والصديق:هذا مؤشر على أخلاق الشخص، إذ من المعلوم – في غالب الأحوال – أن الإنسان يصاحب من يناسبه في الطباع والأخلاق، وهذا شأن كل النفوس طيبة كانت أو خبيثة أن فيها ميلاً إلى ما يناسبها ويشاكلها، وتعمل على طريقته التي تناسب أخلاقه وطبيعته[4].

---

[1] أخرجه الإمام البخاري في صحيحه 2207/5.

[2] أخرجه أبو داود في سننه 44/4 وسكت عنه فهو صحيح عنده.

[3] أخرجه ابن ماجة 1192/2 وهو صحيح، انظر صحيح بن ماجة للألباني رقم: 2921.

[4] أنظر زاد المعاد 196/4، وبدائع الفوائد 406/2، وعدة الصابرين 48، والفوائد 178 ومدارج السالكين 371/2.

رابعا- مصدر الأخلاق:هل الأخلاق فطرية أم مكتسبة؟ ، وإيضاح ذلك كما يلي:

1- هناك أدلة تدل على أن بعض الأخلاق فطري خلقه الله في نفس الإنسان ومنها قول النبي ρ لأشج عبد القيس(إن فيك خصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة)[1]، وفي سياق آخر أن الأشج قال: (يا رسول الله أنا أتخلق بهما أم الله جبلني عليهما؟ قال: بل الله جبلك عليهما،قال: الحمد لله الذي جبلني على خلتين يحبهما الله ورسوله)[2].

2- ومن الأدلة على أن بعض الأخلاق مكتسب:أ- الدعاء النبوي في استفتاح الصلاة، ومنه قوله ρ: (اللهم أهدني لأحسن الأعمال وأحسن الأخلاق، لا يهدي لأحسنها إلا أنت،وقني سيئ الأعمال وسيء الأخلاق لا يقي سيئها إلا أنت)[3]ولو كانت كل الأخلاق فطرية موجودة في النفس لما دعا النبي ρربه أن يهديه لتحصيل الأخلاق الحسنة وأن يقيه الأخلاق السيئة.

ب- ومثل ذلك دعاؤه ρ: (اللهم إني أعوذ بك من منكرات الأخلاق والأعمال والأهواء)[4]، فهذه استعاذة من أخلاق يمكن أن تحصل بالاكتساب كما تحصل الأعمال وكما تحدث الأهواء.

3- اعتبار بعض الأخلاق جبلي وبعضها مكتسب يتوافق مع الواقع والمشاهد من أحوال الناس،وبه يحصل إعمال جميع الأدلة الشرعية، قال ابن القيم بعد أن أورد حديث أشج عبد القيس السابق:(فأخبر النبي ρأن الله جبله على الحلم

---

[1] أخرجه مسلم من حديث عبدالله بن عباس 48/1.

[2] أخرجه أبو داود في سننه 357/4 وسكت عنه، وأخرجه أحمد في مسنده 22/3 و 205/4.

[3] أخرجه النسائي من حديث جابر بن عبدالله 129/2، انظر صحيح النسائي للألباني 895.

[4] أخرجه الترمذي في سننه 575/5، وهو في صحيح الجامع برقم: 1298.

والأناة،وهما من الأفعال الاختيارية، وإن كانا خلقين قائمين بالعبد،فإنه الأخلاق ما هو كسبي ومنها مالا يدخل تحت الكسب، والنوعان قد جبل الله العبد عليهما وهو سبحانه يجب ماجُبل عبده عليه من محاسن الأخلاق ويكره ما جبله عليه من مساوئها فكلاهما بجبله وهذا محبوب له وهذا مكروه)[1].

[1] ابن القيم، شفاء العليل ص 129.